صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

الرواية

مجلة اسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

العدد ٢٨ — ١٣ محرم سنة ١٣٥٧ — ١٥ مارس سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العـــدد

صفحة			
١٧٨	الدواء الذي يخلق العبقرية .	للسير ماكس بمبرتون	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...
١٩١	إن عادت الحية	للكاتب الفرنسي هنري بوردو .	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة ... ...
٢٠٥	الذكرى	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
٢١٦	التحرير	للشاعر الفيلسوف طاغور	بقلم السيد فخري شهاب السعيدي ..
٢١٩	هزيمة	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب شكري محمد عياد ...
٢٢٤	الجوسق الخبي	للقصصي الفرنسي جي دي موباسان .	بقلم السيد كمال الحريري . ...

الدواء الذي يخلق العبقرية

للسير ماكس پمبرتون

بقلم الأستاذ دريني خشبة

... وقال الأمير وهو يضع الشمعة وراء القارورة التي بين إصبعيه فيضيء السائل الذي فيها : « على أنني لا أدري ما ذا يمنع أن يوجد عقار يجلب الذكاء ويخلق العبقرية كهذه العقاقير التي تشفي الأجسام وتطبها ، وتجعلها قوية البناء مفتولة العضل !! »

واستولى العجب على جون ماكِلسفيلد أوف رادفورد ... الرجل الساذج ... الذي كان البله يترجرج دائماً في حدقتيه ، فاعتدل وقال : « أتعني أنه في وسعك أن تخلق عقولاً لمن ليس لهم عقول ؟ »

وكان الأمير أوتو ينتظر أن يلقى عليه هذا السؤال ، فتبسم ثم قال : « حقاً ياجون ... ولم لا ؟! أبداً لم يخامرني الشك في هذا أبداً ... وإني لمقتنع جداً أننا نستطيع أن نبني الأذهان فنجعلها ذكية عبقرية كما استطعنا أن نبني الأجسام فجعلناها هرقلية حديدية ... والأمر سهل ياجون ... فكما استطاع الطب أن يعالج لين العظام في الأطفال ، فكذلك نستطيع نحن أن نزيد المادة السنجابية التي تكسو تلافيف المخ في رأس الشخص الأبله فيصبح ذكياً متوقد الذهن ... وإليك مثلاً ياجون ، ابنتي حنة هذه الجالسة أمامك ، فلقد مرضت منذ اثنتي عشرة سنة مرضاً خطيراً ، أشفت منه على الهلاك ، حتى لقد قرر أطباؤها في رومة والبندقية أنها لن تعيش أكثر من ستة أشهر ... وقد جزعت لذلك جزعاً شديداً ... بيد أنني ضربت برأيهم عرض الأفق ، ثم فرغت لتطبيبها بنفسي ، معتمداً على تجاربي ... فانظر إليها الآن ، وقل لي ما رأيك في هذا الشباب الريان ، وذاك الإهاب الفينان ... أليست هذه معجزة ياجون ؟ »

ولم تكن في رأس الرجل أثارة من الوعي يدرك بها الجمال المجسد في الفتاة الجالسة أمامه ... ولم يُثر خاطره مرأى هذا الأمير أوتو ... الرجل العجيب ... الذي اشتعل الشيب في رأسه ، والذي أصبح اكتشافه العلمي الخطير حديث الأهالي في لندن المتيدة ، والذي فر من العالم الواسع الصاخب لينزوي في هذا المنزل السحيق في بركلي سكوير ، ليعيش فيه كما يعيش سحرة الشرق ومشعوذوه

وهكذا جلس الرجل الساذج جلسة بلهاء لا يعنيها شيء من هذا الجو الهادىء الذي انعقدت فيه سحائب البخور ، وتهدهدت إليه نغمات الأرغون التي أنشأت ترن في بطن الوادي القريب ، فتردد أصداءها أكواب البلور وأطباق المرمر البندقي المرصوصة على المائدة الفخمة وسط الغرفة الرائمة ... لا ... لم يُعن جون ، تاجر الأصواف الانجليزي الذي نزح من لندن إلى دلماشيا ليعقد فيها بعض صفقاته التجارية ، بشيء مما حوله في غرفة هذا الأمير أوتو ... ولم يشغله شيء من جمال هذه الحسناء الايطالية المفتان التي تأسر

بجمالها الأبالسة ... ولم يشغله أوتو نفسه بهذا البريق الخاطف المنبعث من عينيـه اللؤلؤيتين ، بل ، لقـد نظر حوله فى غَرَارَةٍ وغَـفَلٍ ثم قال : « شيء مدهش حقاً أيها الأمير ... لطالما فكرت قبل اليوم فى أن يكون لي عقل عبقري راجح ليكون لي به مركز ممتاز فى الحياة العامة ... وطالما كنت أنظر إلى رئيس وزارة بلادى ، وتأخذنى الغَيْرة من إعجاب الناس به ، واستعظامهم له . مع أنه رجل عادي لاميزة له على الجماهير إلا هـذا اللسان الذرب الفصيح يخلب ألبابهم به ، وإلا عقله الراجح الذى يروّي به فى الأمور ويسيّر به دفة الدولة ويصرف شئونها ... لقد كنت أنظر إليه وقد التفت حوله الآلاف المؤلفة من النـاس يصغون له ويستمعون إليه ، فتأخذنى الغيرة وتنشب أظفارها فى صدرى ... وكنت أقول : « جماهير من الدهماء يسحرها رجل ببهرج القول » ولـكنى كنت أرى مئات العقلاء بعد ذلك يحدقون به ليأخذوا عنه الحكمة وحسن البصر بأمور الحياة فأرجع إلى نفسي ، وأبث أنى لو أوتيت من الذكاء بعض ما أوتى هـذا الرجل الثرثار اللبق ... فإذا كنت تضمن لى ذلك بهذا السائل الذى فى قارورتك فإنك تكون رجل العجائب حقاً ... ! »

وتناول الأمير لفافةً فأشعلها فى هدوء ثم أخذ يُدخن ، وينفث الدخان فى صمت ... وقال بعد لحظات « عزيزى جون ما كاسفيلد ... إذا وكلت إلىّ نفسك لمدة ستة أشهر ، فليس أيسر على من أجعلك خطيباً من أبلغ خطباء العالم ، ومفكراً عبقرياً من أعظم مفكريه بحيث تسمو على حكماء عملكتك بشرط ... أن تثق بى ثقة عمياء غير محدودة وأن تخضع إرادتك لى إخضاعاً مطلقاً ، وأن تصنع ما آمرك به من غير مناقشة ولا استقصاء ! »

ولوى جون عنقه ، فتأرجح رأسه من فوقه كالذى يوافق وإن لم يقتنع ، ثم قال :

— وعملى ؟ !

فهز الأمير كتفيه وأجابه : ألست رجلاً غنياً واسع الثراء ؟

فارتبك جون وقال : أوه ... من هذه الوجهة فأنا غنى

فقال أوتو : وقد حلمت أحلاماً طائلة بالشهرة والمجد ؟

فقال جون : حقاً لقد فعلت ، ولقد فكرت ألف مرة أن فى الدنيـا أشياء عظيمة ، ومطامح واسعة غير تجارة الصوف ! »

فأجابه أوتو : إذن ليس عليك إلا أن تـكل نفسك إلىّ ، وأنا كفيل بمنحك الذكاء الذى تريد ، والعبقرية الواسعة التى تشتهى !

فنظر جون إلى القارورة الصغيرة فى بَلَه وغرارة وقال : « من هـذه القارورة ؟ ! » وهنا تبسم أوتو وتناول القارورة ، ثم جعل الشمعة من ورائها فاختلطت أضواؤها بالسـائل العجيب مرة أخرى ، ونظر جون إلى القارورة فشعر كأن سحرها ينتقل إليه ، وكأن أضواءها تختلط بروحه ، ونظر حوله فوقعت عيناه على طاس الأزهار على المائدة ، فرآها أجمل مما عهدها وأنضر ... وخاف الرجل الساذج مما أحس ورأى ، فانتصب واقفاً ثم قال : « إنك تمزح أيها الأمير أوتو .. إنك تهزل »

ومن غير أن يستأذن انفتل من الغرفة ، ثم من المنزل جميعاً ...

ولاحظ الأمير أن ابنته تتبع الرجل بنظرات حادة ، فاستطاع أن ينفذ منها إلى سرائر نفسها ، وراح يتحدث إلى نفسه هكذا : « أوه يا حنّة ! لقد فتنك الانجليزى من غير ريب ! لقد رأيت الفارق العظيم بينه وبين الأجلاف الذين شهدتهم فى إيطاليا ... الرجل جميل يا حنة ... وأمين ... وبناء جسمه يجذب داعى النساء ، وهذه ملاحظة لا يدركها إلا علماء وظائف الأعضاء ... أوه ! إن هذا الرجل ، إن جون ما كاسفيلد ليس فى رأسه ذرة من الذكاء لكن له كاهلاً عريضاً ، وكتفين عظيمين ؛ ثم شعره ... شعره السكسوني ! مسكينة يا ابنتى ! إنها لا شك تعبده ، وتتمنى لو تتزوجه ، إذا رزقه الله قليلا من الذكاء !

والتفت إلى حنة فجأة ثم قال : « حنة ! ما ذا ترين فى هذا المستر ما كاسفيلد ؟ »

وكانت حنة قد انصرفت إلى الأرغون ، بعد إذ انصرف الانجليزي تاجر الأصواف ، تلعب عليه بعض قطعها وكانت نار الموقد تتوقد وتلتهب قريباً منها ، فلما التفتت إلى أبيها تجيبه انعكس ضوء اللهب على شعرها الذهبى الأحمر ، فبدا وجهها الجميل الناصع كأنه وجه صورة فتاة أمام مصباح خافت ذى ذبالة ترقص وتنتفض

وقد يحسب الانسان أنه من الشذوذ ، أو أنها مبالغة شاذة ، أن هذا الجمال الرائع لم يجذب إليه عينى جون ما كاسفيلد .. ولكن هذا هو الذى استنتجه الأمير أوتو ، وهو أيضاً الذى كان موضع دهشه وطول تعجبه ... وعلى كل ، فقد انتظر الوالد فى تلهف شديد جواب ابنته ، التى انفرجت شفتاها عن ابتسامة رقيقة خبيثة وهى تجيبه فتقول : « والله يا أبى إنى لا أدرى ما ذا أقول ! من يستطيع أن يفهم هؤلاء الانجليز ؟ إن براعتهم المدهشة هي فى هذا الصمت العجيب ! » ، وكأنما سلم أبوها بهذا الرأى ، فقال : « إن للانجليز عقولاً . ولكنها ليست كعقولنا يا ابنتى . على أنها عقول تنتسب إلى بيئتها ومناخها الذى نشأت فيه ... وهذا هو السر فى قصور عقلية ذلك المستر جون ما كاسفيلد ... فهو يعيش فى دنيا كلها صوف ، وهي لذلك كلها أغنام ومروج ، وليست شيئاً غير الأغنام والمروج ياحنة .. إنه لا شك يفكر كثيراً فى مزاجنا الخفيف الشعرى المرح ... مزاج شعوب هذا البحر الأبيض المتوسط ... هذا المزاج الذى ترعرع فى آلاف من سنين الشمس والموسيقى ... وهل المخ إلا هذا الغشاء الرقيق الذي يستطيع الصوت والضوء أن يلعبا فوقه ... وليس الصوت والضوء فقط ، بل إرادة الناس الآخرين ... وذاك هو ما نسميه التعليم أو التهذيب ، الكتابة فوق غشاء المخ بيد مهذبة صناع ! فاذا أردت ، جعلت هذا المستر جون يرى ألف رؤيا عجيبة فى هذه اللحظة ... الآن ... بحيث ينهض فيفتح بيديه أبواب عالم واسع شاسع لم يكن له به عهد من قبل ، فيسمع كلمات لم تتردد أبداً فى أذنيه وسرعان ما يرددها هو ؛ وينطلق بها لسانه ، وقد يجتمع الناس حوله فيشهدون أنهم لم يكونوا يعرفون هذا المستر جون من قبل ... وهكذا يذيع اسمه فى الآفاق ، وقد ينسى عالم

الصوف الذي يشل تفكيره ، ويغطي ذهنه بطبقة كثيفة من الغباء ... وأنا لا أشك في أنه لا بد مصغ لما أشرت به عليه ، فاذا فعل فسترين كيف أبذر بذورى في هذه الأرض البكر الخصبة فهل يسرك هذا إذا فعلته يا حنة ؟ ! »

وشاع البشر فى وجه الفتاة ، وأقبلت على والدها بكل ذاتها فقالت له : « أبى ! لقد طالما حدثتنى أنك تستطيع أن تجعل أغبى الناس أذكى الناس ، فهل هذا حق يا أبى ؟ وهل أنت تؤمن بنظريتك التى استحدثتها ، أم أنك تحلم بها وحسب ؟ أصحيح يا أبى أنك تستطيع أن تمنح الأغبياء لَبابةً وحسن فهم ؟ أم ... »

ولم يشأ الأمير أن يجيب على ماسألت ابنته إجابة صريحة جازمة ... إذ الحقيقة أنه لم يَعْد طور التجارب والأبحاث فيما انتهى إليه — وإن لم يكن قد انتهى بعد

— إن من العقاقير يا ابنتى ما يتناوله بعض الناس فيكونون سحراء ، ونحن نستخدم هؤلاء السحراء وننتفع بهم ... والذى يأكل الأفيون يحلم وهو يقظان أنه ملك ، ولا شك أن مملكته شيء حقيقى بالنسبة له ، وإن تكن خيالاً بالنسبة لنا ... ولا شك أيضاً أن ذهنه ، خلال ذلك ، يكون قوياً جباراً ، بصرف النظر عما يؤول إليه حاله بعد أن يفيق ... ولذا فهو يعرف من أسرار الحياة فى غيبوبته ، ويدرك من كنه هذه الأسرار ، ما لا يفهم منه فى يقظته قليلاً ولا كثيراً ، ولا يستطيع أن يدرك تأويله

فلم لا نجعل هذا الوهم حقيقة ، وهذا الخيال الطارئ واقعاً مستديماً ؟ إن مشروعى ليس مستحيلاً كما يتصور بعض الناس ، وهو بالضبط كالمشروع الذى أدى إلى اختراع التصوير الشمسى ... فقد كان الناس يرون صورهم واضحة جلية على الزجاج والمرايا ، لكنهم يعجزون دائماً عن تثبيت هذه الصور على الزجاج وتلك المرايا ... ثم أفلحوا ... فتحقق الحلم ، وأصبح التصوير الفوتوغرافى حقيقة واقعة ملموسة ، بعد أن كانت وسواساً كهذا الوسواس الذى يجول فى ذهن آكل الأفيون

وعلى هذا النحو كان اختراعى لهذا العقار الذى أستطيع أن أثبت به الصور والأخيلة فى ذهن الغبى من الأغبياء ، فيكون من أذكى الأذكياء ... وسيرى الناس كيف أقلب لهم العالم باختراعى رأساً على عقب ... آه يا حنة ! لقد طالما فكرت فى هذا كله يا ابنتى ، منذ أن طردتنا الحرب الكبرى من أوطاننا ، وأخذت الحياة تسومنا الخسف فى هذا المنفى السحيق ... لقد قاست الدنيا رزايا لا حصر لها منذ جهل الناس أحلامهم اللذيذة التى كانت تخلق لهم مُثُل الفضيلة العليا ... تلك الأحلام التى كانت تشحذ الذكاء الذى لو توفر لحال دون وقوع الحرب الكبرى ... إنه لا هم للناس إلا بناء الأجسام ، وليس فيهم من حاول أن يبنى الأذهان ... وقد وقفوا جهودهم كلها على معالجة أمراض البدن ، فهم دائماً يجهدون فى منحنا لحماً وعظاماً ودماً ... وليس منهم أحد فكر فى منحنا أذهاناً ! ! وهذا لأنهم لا يحلمون ... مع أن الأحلام وحدها هى التى أدت إلى كل ما فى العالم من اختراعات كان مجرد التفكير فيها قبل أن تحقق ضرباً من الجنون

والهذيان ... لهذا يا حنة ... يا ابنتي ، لم أنِ أحلم وأتسامى ...

— وهل تحققت أحلامك يا أبي ؟ هل وفقت إلى ضالتك المنشودة ؟

— إني موقن أنها قد تحققت ... وأثق أنني أصلح رؤوس الأغبياء ، بل أمنحهم ذكاء ولبابة ... فصاحبنا جون ما كاسفيلد مثلاً ، قد نسي في هذه اللحظة طواحين مدينته المظيمة برادفورد ، وهو قد اكتشف فجأة ما في هذا الليل من آيات وعجائب.. إنه لابد يرنو بعينيه إلى نجوم السماء التي تتألق في جونا الصحو ، ثم هو يسائل نفسه عما يخامرها من الأحلام التي تولدها فيها هذه النجوم ... وهذا كله بفضل كلماتي التي أثارت فيه تلك الأحلام ... وهو لا شك منتقل من أحلامه الساذجة إلى ضرب من التسامي الرفيع الذي سوف يشجعه ويحمله إلى تفكير أرقى ... وسيسأل نفسه لماذا هو تاجر بسيط ؟ وسيتنبه إلى النفر القليل من بني وطنه الذين برزوا من المدن والقرى الوضيعة فأصبحوا زعماء البلاد وذوي الصدارة في المملكة ، وهو لابد يحدث نفسه لماذا لا يقتفي آثارهم ليكون مثلهم ... وبهذا يتنبه شعور القوة الكامنة فيه ، فيعمل من فوره على توجيهها لخيره ... ومن يدري إلى أين ينتهي به التطواف ؟!

وهنا ... تنهدت حنة من أعماقها كأنها لم تؤمن بعد بما آمن به أبوها ، ثم قالت : « لقد وجدت من المحال أن أتحدث إليه ... إنه كان يبدو كأنه لا يشعر بوجودي !! »

وتبسم الأمير ابتسامة حنان وعطف

ولقد كان أوتو صادقاً فيما حدس به من أن جون ما كاسفيلد سيصبح فريسة لأحلام حلوة ... تثيرها في رأسه الفارغ تلك الصنوف الفاخرة من الأشربات والآكال التي ذهب ليلتهمها في غدائه ... فإنه ما كاد يخلو إلى نفسه في غرفته الفخمة في أعظم فنادق الهايد بارك ، حتى توجه إلى النافذة ففرّج بين ستائرها ، ووقف يملأ ناظريه من جمال الجنة الفيحاء التي تتأرج وتتبرج أمامه ... تحت قبة السماء الصافية التي أخذ الهلال يسبح في أعماقها ، كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من نجوم الربيع في إقباله ... يا للمنظر العجب الذي لم يكن لجون عهد به من قبل ! هلم نصغ إليه إذ هو يتناجى ويحلم مسحوراً بمفاتن الطبيعة

« ... يا للفكرة !! إن هذا الرجل العجيب يزعم أنه يخلق الأذهان كما يخلق الأطباء الأجسام ! حسن... ولم لا ؟! فكرة غريبة وشاذة... وأكثر منها شذوذاً أن أحداً من الناس قبل هذا الرجل لم يفكر فيها ، ولم تخطر له على بال !! وفي الحق ، أنا لا أصدق مطلقاً أن في وسعه أن يطب أحد المغفلين البلهاء فيجعله إسحق نيوتن مثلا ، أو أنه سيزود العالم بألف أديسون جديد[1] بحيث يجعلهم (تحت الطلب !) ... ولكن هذا السائل ؟! إنه شيء خلاب من غير ريب ... والأطباء ... لم لم يفكروا في مثل ذلك من قبل ؟ ! إنه سائل لا يضر ، فلماذا لا آخذه معي !! إن الرجل العجوز يؤكد أنه يضمن لشاربه الذكاء والفطانة ، فلم

(١) لم نشأ أن نحور هذا التعبير لطرافته

لا أجمله دائماً فى جيبى ليحقق ما أصبو إليـه من من شهرة ومجد

إن هـذا الأمير أوتو رجل حاذق صناع ... ولقد عرفت ذلك لأول وهلة .. إن له لعينين ينفذان فى فؤاد الناظر إليه ، ويشعلان النار فى رأسه ... إنه يسكن فى ذلك البيت العتيق ويحلم ... ويرسم الخطة للرجوع إلى وطنه .. الشرق ! الشرق العظيم الساحر ... الشرق الذى يلهم الغرب دائماً ... ولـكن ... لله هذا العفريت الذى سجنه أوتو فى سائل القارورة ... تلك القمقم ! »

ثم ضرب يده فى جيبه فأخرج الزجاجة وراح يرنو إلى سائلها العجيب الجيل المتلألئ ... حتى إذا فتحها ، وعبقت رائحتها فى خياشيمه ، تبسم ضاحكاً وتحدث إلى نفسه فزعم أنها ستكون أعجوبة الأعاجيب فى برادفورد ... ثم وضع منها فى كوب خمسة عشر نقطة ، وجعل على النقط ماء واحتسى المزيج السحرى ، الذى لم يكن له فى حلقومه طعم لو لا الرائحة التى انبعث شذاها فى أنفه ، فعرف أن الماء غير الدواء ...

وكان يضحك أثناء ذاك ... ويحمد الله أنه لا يوجد أحد من برادفورد ليستهزئ به ويتهكم عليه ، إذ يغفل نفسه بتصديق هذه الخزعبلة !

ومضت خمس دقائق نسى بعدهن العقار الذى انصب فى جوفه ، وعاد إلى النافذة يستملى جمال الهايدبارك ... ثم شعر فجأة بقوة تتدفق فى أعصابه وخيل إليه أن الهايدبارك مزدحم بجماهير حاشدة تصغى إليه وهو يخطب فيها ... ثم إذا هذه الجماهير تتدافع وراءه ، وهو على رأسها إلى دار البرلمان فى وستمنستر ... ويقف فى القاعة فيلقى خطاباً سياسيـاً يقرر به مصائر أوربا ... ويسمع بأذنيه ثناء الأعضاء عليه ، وإعجاب الناس فى الشرفات به ، وافتتان الجميع ببلاغتـه وقوة عارضته ... ويسمع بعض الحضور من بنى دائرته يتهامسون : « لله أنت من خطيب مصقع يا أخانا جون ! »

وكانت الساعة الثانية صباحا ... فانكفأ إلى فراشه وهو يحلم بالمجد وذيوع الصيت ... ثم تذكر الغادة ... الفتـاة الفينانة ... ابنة أوتو أوف متكوفتش ... وعجب كيف لم تتراء له فى أحلامه !

« حنة ! أين أنت يا حنة ؟ ! »

* * *

وعاد تاجر الأصواف إلى برادفورد ، وكلما مضت الأيام اشتد اختلاف الناس فى أمره ، وحاروا فى هذه المتناقضات التى كانت تبدر منه فينسبها بعضهم إلى الجنون . ويردها بعضهم إلى ذكاء خارق ظهر فجأة فى جون

واشترى قصراً منيفاً فى لندن ... وأخذ يدعو إليه كبار الموسيقيين

جون ما كليسفيلد ... هذا التاجر الغبى الذى لم يكن يفقه من الدنيا غير الشاء والثغاء(١) يصبح أذناً للموسيقى فلا يسمعها إلا من زعمائها الفنانين العباقرة !

ولم يقنع بتزيين جدران قصره بصور الفنانين الإنجليز ، بل كان يرسل رجاله ليدخلوا منافسين فى أسواق الصور الإيطالية ، فيشتروا له القطع الفنية التى يعجز أغنى الأغنياء عن دفع ثمنها

(١) الثغاء صوت الغنم

جون ما كاسفيلد! هذا الكبش المظلم!! لا يوجد في معارض الفن من يقدر آياتها كما يقدرها هو!

وانتهى أكثر الناس إلى أنها إمارات جنون من غير شك، ستفتح لتاجر الأصواف مستشفى المجاذيب على مصراعيه

إسمع إلى هذا العين من أعيان الشمال يقول فيه: « ينصب من نفسه خطيباً في السنترال هول وستمنستر فيخلب ألباب الناس ببلاغة لا عهد لهم بها، وبيان مشرق لم يسمعوه من أنبغ زعمائهم، وفكر عميق مرتب لا يقدر عليه إلا الأقلون..؟.. أفذاك هو هذا الكاب القذر... كبش برادفورد... الذي لم يكن لأيام قلائل يفقه من أمور الدنيا إلا النماج والذهب الوهاج؟! جون ما كاسفيلد!! ما شاء الله »

فهذا الذي يقوله هذا العين، ناحية مما صار إليه جون... فهو إلى فصاحته وسمو تفكيره، قد أصبح رجلاً ممتازاً حاضر البديهة متوقد الذهن، لا يكاد يوجه إليه سؤال حتى يعطى جوابه الناضج المبين فى أسرع من البرق، ثم هو يستعمل فى أحاديثه طرائق الأدباء المبرزين، ولا يفتأ يضمنها فقراً طليانية من بترارك وبوكاشيو وأضرابهما...

وقد حار الناس فى رفيقيه اللذين يلزمانه كظله أينما سار وحيثما توجه... هذا الرجل السمهرى

عدد الرسالة السنوى الممتاز

بمناسبة العام الهجري

كتاب قيم خالد

يؤلفه أربعون من أقطاب البيـــان فى جميع أقطار العروبة، ويشتمل على جملة من صفوة الرأى ومختار الكلام فيما يتصل بمجد الاســـلام وأدب لغته وحال أهله

سيصدر فى يوم الاثنين المقبل ٢١ مارس فى ٩٠ صفحة

الأشيب ، الذى يدعوه الأمير ... وتلك الفتاة الحسناء الهيفاء القسيمة الوسيمة ، التى تشيع السحر فى جو المكان الذي تكون فيه

والمدهش من أمر جون أنه لم يكن أعرف من أهل برادفورد بسر نبوغه وتفوقه ، إلا أنه كان يؤمن بأنه أصبح ظلاً لهذا الأمير أوتو ، وأنه لاينطق ولا يفكر ولايتدفق فى خطاباته إلابوحى منه أو إيحاء ، فإذا سأله سائل عن مسئلة اتجه بعينيه الضعيفتين إلى عينى أوتو القويتين ، حتى إذا تم بينهما الاتصال الروحى الذى لابد منه ، ولا محيص عنه ، إنطلق يجيب فى فصاحة بالغة ، وبيان عذب قوى ، بحيث يتغلغل إلى سويداوات سامعيه ، ويسحرهم عن أنفسهم ... فإذا فرغ وفاء إلى نفسه ، عرف أنه كان يتكلم بلسان جون ، ويفكر برأسه ... وأن القطرات التى شربها قبل أن يتكلم ليست هى التى واتته بهذا الذكاء وذاك البيان ، وإن تكن حقاً قد مهدت لها

***

ولقيه أحد أصدقائه الكهول يوماً فى شارع أكسفورد فافتر باسماً وقال له : « أوه جون ! اشد ما تغيرت فى هذه الحقبة الأخيرة من حياتك ... ولشد مانحن معجبون بك ... أجل يا ... فتى ! ... ومع ذاك ، فإنك لم تدخل الوزارة بعد ، وليس فى أعضائها من هو أكيس منك ولا أحذق ولا أصدق بياناً ... فلم لا تفعل ؟ »

وراغ جون بجواب مقتضب مؤدب ، ثم انفتل فى معرض فرنسى للصور حيث وقف مسبوهاً أمام صورة رائعة للمسيو كلمنسو ... نمر باريس !

ولما لم يكن له أى إلمام بالسياسة الفرنسية ، فقد وقف حائراً أمام صورة السياسى الداهية الذى درأ عن فرنسا أيما خطر خلال الحرب الكبرى ... وهنا خطر له فجأة أن يعود أدراجه إلى مسكنه ليكتب نداء يناشد فيه الفرنسيين والأمريكيين أن يعملوا متعاونين لما فيه سلام العالم العام وأمنه وطمأنينته ، وأن يطرحوا سخائم الماضى التى ينفخ فى نارها الساسة للبانتهم الشخصية .. ولم يدر جون ماذا أثار فى خاطره هذه الفكرة ... لكنه التفت فوجد صاحبه الأمير أوتو قريباً منه ، ورأى ابنته حنة واقفة عند صورة تدقق فيها نظرها

— لقد كنت ترمق صورة المسيو كلمنسو بعينين مشوقتين !

— أوه .. هذا صحيح .. لقد أغرانى الاعلان الضخم ، فدخلت أتفرج بهذه التحف .. وأحسبك تذكر ياأوتو أننا كنا نتكلم عن هذا المسيو كلمنسو على مائدتك أمس !

— أجل . أذكر هذا

ثم لف ذراعه حول ذراع ماكاسفيلد ، وراحا يذرعان المعرض جيئة وذهاباً ، والأمير أوتو يشقق الأحاديث عن الفرنسيين والأمريكيين ، فيشرح لصاحبه تاريخهم وأحوالهم وسيكلوجيتهم

— .. ومن فى الانجليز يستطيع أن يهذب معلوماتهم عن الأمم الأخرى مثلك يامستر جون .. على أنه قد يأتى اليوم الذى تبث الدعاوة بينهم عن وطنى المنكوب ، ومبلغ ما لاقى من التعاسة بسببهم فيصلحون بعضاً من أخطاء الماضى !

— أنا ؟ .. أنا لا أعرف من ذلك كثيراً ولا قليلاً أيها الأمير !

— إن كنت لا تعرف منه قليلاً ولا كثيراً ، فبقليل من الذاكرة تستطيع أن تعرف كثيراً جداً والآن ... يجب أن نذهب مع حنة إلى مطعم سيرو فقد وعدتها بذلك ... أين هي ... ؟

— أوه ! إنها هناك ... ها هي ... مالها لا تريم عن هذا النقش السخيف ... أية صورة هذه التي تقف أمامها مأخوذة مسحورة... ؟ سبعة آلاف جنيه ؟ ! ثمن باهظ ... إني لا أشتريها بخمسة جنيهات إذا عرضت عليّ !

* * *

وذاع صيت جون ماكاسفيلد في جميع أرجاء لندن .. ودهش الناس لم لا يكون عضواً في الوزارة إن لم يكن رئيساً لها ، وهو هذا المفكر العميق ، والخطيب المصقع ، والكاتب الذي لا يشق له غبار

وتكلم الناس في هذا الصدد ، وأكثروا فيه الحوار ولا سيما حينما أذيع اعتزام الحكومة عقد مؤتمر عام في قاعة ألبرت هول لبحث موضوع « تخليها عن الصناعة للأهالي » وما ذاع من أن رئيس الوزارة والمستر جون ماكاسفيلد هما وحدهما خطيبا هذا المؤتمر

وحدث تغير فجائي في نفس المستر جون !

فقد ثارت فيه كبرياؤه وعز عليه ألا يكون شيئاً إلا بهذا الأمير الأشيب أوتو متكوفتش ... وصمم أن يعد خطبته في (تشعيب الصناعة[1]) بنفسه وأن يذهب إلى قاعة ألبرت هول دون أن يصحب الأمير أو ابنته معه ... « ولماذا ؟ أمن أجل هذا الوهم الذي تسلط على فأحسب أني لا أستطيع التفكير بدونه ولا الخطابة إلا بإيحاء منه ؟ ! لا ... لن يكون هذا بعد اليوم ... لا بد أن أستقل عن هذا الرجل الذي استلب إرادتي ، وقبض على آلة تفكيري ، فلا تدور إلا بإذنه ... إن هذه فرصتي إلى الوزارة ، ولن أرقى إليها على أكتاف الغير ... إن الناس في برادفورد مقتنعون بعظمتي ، والانجليز كلهم مسحورون بشخصي ، فما خوفي أنا ألا أكون شيئاً إلا بالعجوز أوتو ؟ أكل هذا خداع في خداع ؟ ثم تذكر السائل فصمت قليلا ، وحدث نفسه فقال: « لا بأس سأتناول الجرعة قبل أن أذهب ... إنه شراب مقو يبعث في النفس شجاعة وانشراحاً ، وفي اللسان براعة وانطلاقاً ، لكنه لا يخلق البيان ولا يوجد الفصاحة من العدم في اللسان ... إن بلاغتي هي طبع فيّ كان مستوراً ، وإن هذا السائل العجيب الذي أتجرعه من الزجاجة الخضراء هو الذي ساعد على اكتشافها ... إنه لم يصنع شيئاً غير هذا ... فلأشرب الجرعة إذن ، ولأذهب بمفردي ... »

ثم شعر فجأة بالاحساس السحري يتلبسه ... وبالقوة الخفية الهائلة تشيع في أعصابه ... وهنا يتغير تفكيره ، ويحس بحاجته الشديدة إلى أوتو متكوفتش ... وتذوب حماسته السابقة ، وتتبخر ، ويؤمن من جديد أنه ليس شيئاً مذكوراً بغير هذا الرجل الأشيب الهائل ، ويحس كما تعود أن يحس من قبل أنه لا يستطيع أن يتفوه بكلمة إلا إذا أوحاها إليه أوتو ... ويذكر حاله قبل أن يلقاه في

(١) أي أن تنزل الحكومة عن الصناعة للشعب

وللشيا فيبتسم ضاحكا مما كان فيه من غباء وغرارة وجهل ، ثم يرى إلى نفسه الآن رجلا يشار إليه بالبنان ، ويجرى ذكره على كل لسان ... وهـذا بفضل الأمير أوتو !

« لا ... أنا هازل ... لا بد لى فى ذلك اليوم الموعود من أوتو متكوفتش ... إنه رجل عبقرى.. وأنا لا أكون شيئاً إن لم يصحبنى إلى هناك ... هو ... أو ... حنة ... لا بد لى من أحدهما ... ولا بد أن يجلس فى الصف الأمامى ليكون أثره بالغاً حده الأقصى فى وجداني ... »

ثم سمع هاتفاً يردد فى روعه هذا النداء : « أجل . أجل يا جون ماكاسفيلد ... إياك أن تذهب إلى المؤتمر بدونى ... إنى أرغب أشد الرغبة أن أكون معك اليوم كما كنت معك بالأمس وقبل الأمس وفى كل مرة ... إن لدي أفكاراً وإن لدى خططاً سترفعك إلى الذروة ... أسمعت ؟ إياك أن تنسانى... إحذر أن تتحرك إلى قاعة ألبرت دون أن تصحبنى ... »

ولم يكن هذا الهتاف وهماً ... لقد كان يتردد فى أذنيه كأن أوتو واقف أمامه ... حتى أنه وقف وشكره ، وأكد له أنه لن يذهب وحده ... ثم مد إليه يده فصافحه ... وحينما فتح عينيه ... لم يجد أحداً فى الغرفة معه !

وعرف أنه الوهم مرة أخرى ...

وعاد يفكر من جديد فى وجوب التخلص من هذا الخداع .. فصمم على أن يذهب إلى المؤتمر وحده وأن يبنى مجده بيديه ... وأن يرفع اللبنات التى تشيد صرح مطامحه فوق كتفيه هو لا فوق كتفى شخص آخر ... وكان هذه المرة جادًّا فى تصميمه ، معتزماً ألا يعتمد على أحد فيما يصبو إليه من رفعةٍ ووزارة ومجد ...

ولم يبق على المؤتمر إلا أيام ، وكان يذكر صاحبه أوتو فتشرق أساريره مرة ، وتظلم وتحتلك مرات ... ثم سمع من أحد معارفه أن الأمير مريض ، فكان أول ما خطر له أن ينطلق من فوره فيزوره ... فلما كان فى طريقه إلى شارع شارل ، حيث منزل أوتو متكوفتش ، جعلت الذكريات تتردد فى خاطره وتلح فى ترددها ، ولم يستطع جون أن ينكر أيادي الأمير عليه .. والشهادة له بأنه صانعه.. وإن كانت كل تلك الهواجس تجعله في حيرة من أمره ...

— أبى مريض يا مستر جون ... إنه مريض جداً .. وهو مايفتأ يشكو بذات الرئة .. والأطباء يؤكدون أنها حادة ... لقـد ضعف وهُزل حتى قد لا تستطيع أن تعرفه إذا رأيته

وبدا الغم فى وجه الرجل ، وشاع فيه الحزن العميق ... ثم نظر إلى حنة فى غير عمـد ، فبهره منها هـذا الشعر الأحمر الذهبى ... وإن لم ير فيه إلا الاشفاق عليها ، والرثاء من أجلها ، والتفكير فيما يؤول إليه أمرها إذا مات أبوها

— حنـة ! لابد من استدعاء إخصائى فى الأمراض الصدرية ... وأظن أن السير سبيريان هو عمـدة الأطباء فى ذات الرئة ... أليس لكم ممرضة يا حنة ؟!

— أنا هنا الممرضة والابنة يامستر جون ... إن أبي يأبى أن يمرضه أحد غيري

وناقشها المستر جون في قيامها بتمريض أبيها ، ومع أنه أقنعها بأن السهر على صحة المريض مرهق لشبابها وأنه لابد من ممرضة أخرى خبيرة بفنون التمريض إلا أنها لم تشأ التخلي عن هذا الواجب المقدس ولم تقبل أن تنزل عنه لأحد

* * *

وعاد المستر جون ماكاسفيلد إلى فندق (رتز هوتل) ... وعاد أيضاً يفكر في خطبته المزمعة في قاعة (ألبرت هول) ، وهي تلك الخطبة التي ترتكز عليها كل آماله في دخوله عضواً في الوزارة ... ثم بدأ شيء من الأسف يخامره لمرض الأمير أوتومتكوفتش ... وتمنى لو عوفي قبل الموعد المضروب لإلقاء الخطبة ... ثم تخيَّله جالساً في جميع الأندية والمسارح والمجتمعات التي كان يلقي فيها خطبه في الصف الأول من المستمعين ، وتخيل عينيه العميقتين تشعان السحر والكهرباء في نفسه فيتدفق بياناً كما يتدفق صيِّبٌ من السماء فيحيي الأرض بعد موتها ... ثم تخيل ضرورة حضوره هذا المؤتمر ليتم له النجاح المنشود وليفوز بعضوية الوزارة ... وأخذ يشك في النجاح إن لم يحضر أوتو ... وأخذ الشك يكبر ويتعاظم حتى طغى على نفسه ، وعلى أفكار الزهو والكبرياء التي ثارت في رأسه وصدره قبل ساعات ، ثم وقعت الواقعة ... ! فقد توفي أوتومتكوفتش ، الأمير الشرقي الساحر قبل موعد انعقاد المؤتمر بليلة واحدة ... فلما سمع المستر جون خبر وفاته فزع أيما فزع ، وأصيب في تفكيره بطائف من الشلل قضى على كل ملكاته وكفاياته ، وتناول الخطبة المكتوبة فلم يستطع أن يقرأ منها حرفاً ، ثم حاول أن يذكر الغرض الذي من أجله ينعقد المؤتمر غداة غد فلم يستبن من ذاك شيئاً ... ووقف ليرتجل الخطبة فلم يقدر على صوغ عبارة واحدة .

وتذكر السائل السحري فجأة فبادر إلى أخذ الجرعة التي حددها له المغفور له الأمير أوتو متكوفتش ...

ماذا أصاب السائل أيضاً ؟ ! أين الشذى الجميل الذي كان يفعم الخياشيم ويجري حديداً في الأعصاب ؟ مالهذا السائل ينحط في المعدة كما ينحط الدواء الخبيث ، تعافه النفس ويتقزز منه الفم ؟ آه ! لقد ذهب السر الهائل بذهاب الأمير أوتو ؟! يالله ! لقد كانت نهاية المستر جون ماكاسفيلد الخطيب والمفكر السياسي الداهية أغرب من بدايته ! وعند ما اقتربت اللحظة الرهيبة المهمة في حياته ... ابتعدت عنه كالبرق عوامل النجاح ... يالموت !

* * *

ووقف المستر جون يلقي خطبته ... فماذا حدث ... ؟

« ماهذه الفهاهة ؟ ماذاك العي ؟ ماهذا التفكير السقيم ؟ من الذي دعا ذلك البهيم ليَهق في ذاك المؤتمر ؟ ما لنظراته تترجرج كالزئبق هكذا ؟ » ... وبمثل هذه العبارات القاسية أنشأ المستمعون يسلقون جون بألسنتهم الحداد . وفي الحق ... لقد

ظل الناس حيارى فى أمر هذا الرجل ... يعلو ويعلو ويعلو حتى لا يكون علو... ثم يهوي ويهوى ويهوى حتى لايكون سُفل ... لقد ارتفع بالأمس القريب حتى لم يعد فى انجلترا كلها من يدانيه بلاغة وفصاحة وإشراق بيان وسمو تفكير ، فما باله الليلة قد هوى من حالق ؟ ! ليس أحد يدرى ! حتى ولا جون نفسه ··· فلقد وقف فوق المنبر يبرق ويحملق ··· ويبحث عن كلمة أو كلمتين يقولها ، ولكن الكلام كله التاث عليه ... حتى ريقه جف فلم يستطع أن يبلعه ، وكان رطباً أبداً ! وأخذت العيون ترمقه ، والألسن تسلقه ، ووقف مسكيناً حائراً كالطفل الضال في المدينة الصاخبة ... وذكر أوتو فتمتم بصلاة خافتة ، ودعاء حار أن يدركه الأمير الشرقى من عالم الأرواح ببعض سحره ... ولكن ... هيهات! فلقد ساد قاعة المؤتمر صمت يشبه الموت... وتبددت نفس المسكين لهفات وحسرات !

— « إنطق ياصاح ··· تكلم ··· إن برادفورد بريئة إذا طال هذا الحصَر(١) ··· تكلم ··· إنك موشك أن تقضى على شرفنا ! »

من كان يرسل هذا السخط فى جو المجلس ؟ آه ! إنه رجل من برادفورد ! وهكذا سقط المستر جون ماكاسفيلد من عالم السياسة والمجد البراق سقطة لاقيامة له من بعدها ··· ودخل إلى هذه الدنيا الهادئة المتواضعة ... دنيا المراعى والأغنام والأصواف ... ولم يعد يدور فى خَلَدِه قط أن يضع إحدى قدميه فى دار البرلمان المتيدة ، ذات البريق وذات السنا...

(١) الحصر العى وعدم استطاعة الكلام

بل آثر برادفورد الساكنة ، ولم يعد يقبل إلى لندن إلا مرة فى رأس كل شهر ، حيث يقيم ليلة أو ليلتين فى فندق ألرتز هول ، ليشرف من النافذة الحبيبة على الهايد بارك ... ويجتر هناك أحلامه

وتذكر السائل العجيب السحرى مرة بعد وفاة الأمير أوتو بستة أشهر ... فراح يجمجم فى نفسه بعض العبارات : « ياله من سائل ! لقد كان خداعاً عظيما ... ومع ذلك فما أظنه كان خداعاً صرفاً ، ولا وهماً محضاً » — وكان يجلس عند النافذة المطلة على الهايد بارك ، وهو يرسل هذه الكلمات ، وفى يده الزجاجة الخضراء التى كانت ما تزال تحوي قطرات من السائل السحرى ، كانت تشع سناء حلواً مشيماً بالذكريات ، رغم الأشهر الستة الطويلة

ولما نام أخذت الأحلام تسبح فى رأسه المضطرب ، وسمع هاتفاً عجيباً يأمره أن ينهض من فوره ، فينطلق فى شوارع لندن لأن حظاً جديداً ينتظره ... وقد يكون فيه إسعاده ...

وهب من نومه ليضحك ملء شدقيه لهذه الرؤيا الشاردة

وكان الليل جميلاً مقمراً ، وكانت ليلة من أخريات الصيف اللندني العجيب ، فخطر له أن يحقق مدى ما فى هذه الرؤيا من صدق ... من أجل ذلك لبس ثيابه ووضع فوق رأسه القبعة ، وهرول على الدرج وانطلق يذرع حدائق الهايد بارك إلى محطة فكتوريا ، وهو لا يدرى ما الذى يدفعه ليسير فى هذا الطريق بالذات . . . ولما بلغ كتدرائية وستمنستر ... وقف وجهاً لوجه ، حائراً مرتبكاً

أمام فتاة نحيلة ، منهوكة الجسم ، متشحة بملابس سوداء ... ما كاد ينظر إليها حتى عرفها !

ولكن الفتاة انفتلت فى شارع ضيق ، ثم دخلت منزلا حقيراً ، فقال جون :

« يا لله ! إنه لا يمكن أن يكون هنا مسكنها »

ولم يدر ماذا يصنع ...

ثم رأى كأنه يحلم ... وها هو شبح الأمير أوتو يدفعه نحو باب المسكن الذى انفتلت فيه الفتاة ..

وها هى يد الشبح تمتد إلى الباب فتفتحه ... حيث رأى جون ماكاسفيلد حنة ، ذات الشعر الأحمر الذهبى ، واقفة خلفه !!

وصاحت حنة مذعورة : «مستر ماكاسفيلد!»

ويتم المستر جون قصته فيقول :

— « حقاً لقد كنت غراً أبله لا أعرف ما الدنيا قبل أن أعرف حنة .. إنها خير من السائل العجيب السحرى الذى اخترعه أبوها ألف مرة !! هأنذا أخطب خطباء أهل الأرض وأعمق مفكريهم بعد إذ تزوجتها »

دريني خشبة

كل ثوب مصرى علم من اعلام الحرية
تغزلها وتنسجها لنا
شركة مصر للغزل والنسج
وتبيعها جميلة متينة رخيصة
اطلبوا منتجاتها من
تجار المانيفاتورة بالقطر المصرى

إن عادت الحية ...

للكاتب الفرنسي هنري بارناباس
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

هنري بارناباس ، كاتب قصاص على نسق جي دي موباسان قليله يغني عن الكثير ، وكثيره رائع . جعل قصته (إن عادت الحية ...) على لسان موظف سياسي ، يحمل حقيبة دبلوماسية بين باريس ومرسيليا . وفجأة التقى في القطار بصديق قديم هو القصاص الشاعر كليان ديربال الذي كان شبه مجنون بحالة رثة . وإنه على غناه وتلؤلؤ مواهبه يعيش عيشة الفلاكة ، فاستدرجه حتى قص عليه سبب قنوطه من الدنيا وزهده في الحب وسعادته الموهومة . وكانت القصة تنفصل وتتصل تبعاً لحركة القطار وبلوغه محطات الطريق وهو ابتكار في فن الرواية . فإن القصة ليست سوى قطعة من حياتنا تلازمنا ونعيشها وتأخذ منا وتعطينا كالسفر نفسه الذي ينقلنا ويطوي المكان والزمان والأعمار معاً . أما اسم المرأة فهو لور ، ويكتب أحياناً لورا وهكذا كتبناه على الصورتين .

إياك واحذر من الاعتزاز بمواهبك كما كنت أفعل . فقد كنت أفاخر بما يسمونه قوة الذاكرة ! وأزعم أنها صديقة وفيّة لا تخونني أبداً . وما زلت كذلك أغبط حيناً وأحسد أحياناً على تلك النعمة المؤاتية سواء أكان ذلك ذكاء أو فطنة . تقول عقلاً واعياً أو عقلاً باطناً .. قل ماشئت ، ولكن ثق ياصاحبي أنني أعتقد أن في الكائن الانساني سراً كامناً ، بل قوة خفيّة ... سمّها شيطانة أو ملكة ... كما شئت ... فهنا السر (وأشار الأستاذ بيرون إلى رأسه) الذي يعجز العلماء عن تحليله ومعرفة كنهه .

كنت مسافراً من مرسيليا إلى باريس في قطار الليل السريع في عمل هام ينتظرني ذووه على أحر من الجمر . . . نعم عمل سياسي سيأتي خبره في سياق حديثنا . وكان في صحبتي موسيو ديربال الكاتب الشهير الذي قضى نحبه بفاجعة أليمة ... كان قصاصاً وشاعراً ولكنه من ذلك النوع المتبرم بالحياة .

كنت قرأت كتابه « من الأعماق » وهو حافل بأنفس الخواطر والأفكار عن خفايا الضمير وخبايا النفس من الشهوات والوجدانات والعواطف . وكان ديربال يأكل ويشرب وينام ويصحو بثيابه كاملة ، ويأبى أن يغتسل أو يحلق ، ويقول إن الأسد والفيل والنمر لا تفعل شيئاً من ذلك فلا حاجة به إلى الزينة . فتصور هيئة ذلك الإنسان المتوحش الذي وهبته الطبيعة تلك العبقرية النادرة وهو ينشدك شعره في فلسفة الحب وهو حافل بالبديع الرائع من شذرات الغزل الرقيق والنسيب العذب ، ولو رأته فتاة أو كاعب لفرت من وجهه فزعاً

فسألت رفيق السفر : كيف صار إلى تلك الثورة وذلك القلق حتى أمسى متوقداً معذباً وهو الذي أفاض نفثات السحر على آفة الحب فكساها أجمل صبغة وأحسن رواء ، واجتنى من شجرة الأحزان والأشجان ثمار الفصاحة غضة يانعة .

فقال لي : خيانة المرأة . خيانة المرأة هي التي ساقت إلى قلبي الحزن الدائم والشقاء المقيم ، فأصبح قلبي مجال الشك والريبة وموطن التهمة وسوء الظن

فسألته : أ لأن امرأة واحدة خانتك ، جعلت الجنس الأنثوى كله فريستك وضحيتك فثرت على نشاء العالم ثورة حنق وحقد عنيفة هوجاء وشننت على النوع الإنسانى غارة شعواء ؟

فتنهد ديربال من أعماق قلبه وحدجنى بعينين قويتين ثم قال : لقد ثبت عندى أنك لم تعرف خيانة النساء ولم تذق مرارتها ولم تكتو بنارها . إنك يا سيدى لا تعرف حقيقة قلب المرأة ... واملك لا تزال تظنها بهجة الدنيا وزينة الحياة وقسيمة الرجل وأداة سعادته ووسيلة هنائه . ومن العجب أن معظم الرجال يرون رأيك ، فليتهم يعرفون بعض ماعرفت ، إذن لتمنوا انقراض جنس المرأة انقراضاً لا رجوع بعده ، وإذن لساد الأمن والسلام فى الدنيا وانفسحت ظلال النعيم فى العالم ، وكف الناس عن التدافع والتنازع والتحاسد والتحاقد ، ولم تلق على ظهرها وغداً ولا شريراً ولا اثيما ولا خبيثاً ؛ إذ يصبح الرجل لا يرى لنفسه أدنى ثمرة فى التزام الرذائل والخبائث وارتكاب الإثم والجرم واقتراف الشر والنكر . هذا لا شك ما يحصل لو أن الطبيعة فى ساعة من ساعات تعقلها قضت بطعنة واحدة على بنات حواء كافة وأراحت الرجال من الجنس « اللطيف » . فابتسمت ثم ضحكت ثم ساورتنى المخاوف فقد دخل فى روعى أن بالمؤلف العظيم لا شك جنة لا تعرف علتها ولا يفهم سرها . ولعله كان أصيب إثر داء أو لوعة بأشنع أنواع الجنون ، أعنى ذلك الذى يكتسى ثوب العقل ويلبس زى الحجة والبرهان ! وقد تمكن بعقله الجبار أن يجعل من الجنون جمالاً ، وينفض على أضاليل الأقوال والأعمال رونقاً سماوياً كلألاء

الشعاع ، يبهر عيوننا ؛ تتلو صفحاته فتسكب عليها دموع الرقة والحنان . عند تمام الساعة الأولى بعد نصف الليل ، وقف القطار فى محطة ديجون فدعوت الشاعر إلى شرب قدح من نبيذها المعتق ، فأبى إلا أن يشرب أقداحاً من الأبسنت وهو ما يسميه « بالشيطان الأخضر » ويتغزل فى لونه قبل أن يتجرعه . وفى الحق أن تلك الخمرة الخبيثة التى طالما ضللت العقول ، وحرقت الأكباد ، وأذابت المواهب النادرة ، كانت فى الأقداح كالزمرد الذائب تجذب النظر وتغرى النفس بارتشافها . وقد لمح ديربال إعجابى وترددى ودهش من اكتفائى بالنبيذ ، وهو شراب برىء إذا قارنته بشيطانه الأخضر الآثم فقال لى :

— إذا أرقتنى الأوجاع وسهدتنى الأوصاب ، خففت عني وطأة الداء بهذه الكؤوس المترعة ، فتحول ذهنى عما أعانيه من الألم بذكرى أيامى الخالية وحوادثى الماضية ، وما انطوت عليه من العواطف والحسرات والتلهفات ، وخواطر التوبة والندم

فقلت له وأنا أنادمه : ترى يا صاحبى ديربال أى أدوار حياتك هي الآن أكثر تردداً على خاطرك فى ساعة الذكرى ؟

فقال : لم يكن دور الشبيبة وعصر الصبا ... كلا ! فلقد كانت ملذاته قليلة نادرة ، مشوبة في معظم الأحيان بمرارة الألم ، إنما خيانة المرأة هى التى تتردد على خاطرى ، وفى أمثال هذه الساعة إذا خطرت ببالى الخواطر عن باريس وأحوالها وحوادث العصر ، وعن شهرتى وسمعتى ، أسرعت إلى طردها من حمى خاطرى لتوفير نفسى على ما تألم له من الوجدانات والأشجان ، التى تحركها ذكرى خيانة المرأة

كان الشاعر ديربال يتكلم ، وأنا أحترق على قصته ، ولكنني لم أحاول قط أن أشعره بتلهفي ، فقد عهدت هذا النوع من الرجال يروغ منك ويعرض عنك ، إذا أحسّ برغبتك في استطلاع دخيلة نفسه ، بل إنه ليفقد وحيه ، ويطفئ مصباح إلهامه عامداً ، إذا ألزمته أن يروي عليك حديثه . يجب أن تتركه يفيض من تلقاء نفسه ، وإن عواطفه الجيّاشة لتطغى على هدوئه وتلجئه إلى الكلام ، ليخفف عن قلبه وطأة الألم ، فخير سبيل لك أن تتركه ، وإن أردت الإمعان في إهاجة شعوره ، فلتعرض عنه ، ولتظهرن عدم اكتراثك بالوقوف على سره ، وإلا فإن كل إشارة أو عبارة تنم عن اشتياق لحديثه تسد في نفسه مسالك القول ، ولذا فقد تصنعت الإغضاء وتعمدت التجني ، وما زلت سالكاً معه سبيل الدلال حتى عدنا إلى مركبة القطار ، وقد بعثت فينا أقداح الخمر دفئاً وأحلاماً عذبة ، فاضطجع ديربال على المقعد الطويل ، واتخذ منه فراشاً وثيراً ، وأخرج من أعماق جيوبه المختفية وراء أردية لا عداد لها ، علبة مستديرة من الذهب ذات غطاء لازوردي مزدان بصورة لم أتبينها في بادئ الأمر ، ثم نقر على غطائها ورفعه ، وتناول على مهل بين أطراف بنانه مسحوقاً معطراً مما تحتويه العلبة وقال : هذه علبة زينتها وقد نقشت عليها صورتها ، صنعها لي كلود باسيه ، ووراء الصورة مرآة صغيرة طالما نظرت إليها وهي تتزين بما فيها فانطبعت على صفحتها محاسنها ... أتصدق ذلك ؟ إنني عند ما أشتاق لرؤيتها ، أنظر إلى خيالها في المرآة ... لأنه لا يزال باقياً ، فأراها !! ثم أنشق عطرها ... أتصدق ذلك ؟ إني قادر على استحضار مباهجها وعبقها ، بعد أن ماتت واستقرت في جوف الأرض الندية في غابة قريبة من شاربونيير ، تلك القرية الجميلة التي قضيت فيها أسعد أيام حياتي في صحبتها قبل أن أكتشف خيانتها التي استحقت عليها الموت . نعم الموت

— إذن ماتت تلك التي حملتك أعباء الحزن والغيرة ، وأسخطتك على الدنيا ومن فيها ؟

— نعم . ماتت

— وإذن كنت سعيداً حقاً بحبها في حياتها ؟

— كنت سعيداً ... وأعترف أني كنت أشعر أحياناً وسط هذه اللذائذ الرائعة بضئولة أحلامي وأوهامي وأحس أن أخيلتي كانت تافهة حقيرة ، لأنني كنت أرى في عينيها بريقاً يوشك أن يكون لهباً . فأسألها فلا تحير جواباً . كانت اللعينة سكوتاً آيتها الصمت الطويل والتفكير العميق ، فأسكرتها ذات ليلة سكراً شديداً فكانت تلك الشيطانة الانسية تزداد صحواً وتنبهاً ، وكلما أمعنت في إغراق حرصها في كؤوس الخمر لأحل عقدة من لسانها أمعنت هي في اليقظة ، كأن خمرة بورجونيا وشمبانيا وكونياك[1] عصرت خصيصاً لتزيدها حذراً وتكتما ، ولكنها في آخر تلك الليلة بعد أن لا ينتها وداعبتها وعبثت بشعرها ومناعم صدرها وهصرت عودها وعصرت قلبها بما يقبل عليه كل عاشق مجنون في خلوة يحسبها لفرط عطشه وداع الحب ونهاية الغرام ، وقد جلست في الفراش عارية ، وكانت أشبه الأشياء بتمثال من

(١) أسماء مقاطعات فرنسية اشتهرت بعصر الخمور المعروفة بأسمائها

المرمر المشرب بلون العاج ، وقالت لى بعد برهة من وصالنا :

أى كليمان . كليمان ديربال... ماذا تطلب منى ؟ أراك لا يهدأ روعك منذ عرفتنى ، ولا تستقر على حال . تدأب تسألنى عن الماضى ، كأنك لا تقنع بحاضرى الذى بين يديك . ما ذا عليك من الماضى وما جرى فيه . أتظن أشد النساء بلاهة ونزقاً تفضى إلى حبيبها بحقيقة حالها مهما برح بها هواه وسلمت له قيادها فقلت : هل بعد الذى نحن فيه سر يصان ، وهل وراء ما نرى ونتذوق خفاء ؟

— وهل يحب الرجال أبداً هتك الأستار ؟ هب معشوقة مفرطة فى السذاجة والصدق أفضت إلى عاشقها بكل ما رأت وعاينت وتألمت أو فرحت وسعدت . أتراه يتقبل اعترافها بالتصديق والتسامح ؟ أم تراه يصاب بداء الغيرة التى تقتل الحب فى مهده يافعاً وفتياً . وإن هى صدّقته وكان هو أول من أحبت ، فليس لها منه سوى الشك الباعث على اتهامها بما هو أشد من التصنع والكذب

فقلت لها : تضربين يا لور المحببة الأمثال بغيرك وتحومين حول لباب الحديث وخلاصته ويأبى حذرك أن تتكلمى عن نفسك ؟

فقالت : لو أن وراء الكلام الذى تقصد إليه خيراً لك ولى ، وحقك ما ترددت لحظة فى تسليمك مفاتيح قلبى ، وجعلتك فى حل من مغاليقه . ولكن وا أسفاه ! ليس لدى ما أبوح به غير أنى امرأة شقية بائسة ، لقيتك فى وقت كنت فيه أحوج ما أكون للعناية والرحمة والمواساة والحب ، فأحببتنى وعنيت بى ورحمتنى وواسيتنى ، وفرجت أزمة نفسى التى كادت تسحقنى وتمحقنى ، حتى لقد اعتقدت أنك مرسل إلى من السماء ، فإننى على الرغم مما وقع بى من كوارث الحياة ونكباتها ، لا تزال بى بقية من الإيمان الذى نشأت عليه وأظلتنى شجرته

فقلت لها : عجباً يا لور . لم أسمع منك قبل هذه اللحظة أنك كنت فى ضيق وألم وأنى خففتها

فقالت : أ كنت تريد أن تمتن علىّ وتتطاول وتحاول إذلالى

قلت : من أين لك هذا الظن السيء ، ولِمَ لم تحسبى أنى أشاركك الأسى وأترفق بك ، وأتلطف فتخف لوعتنا معاً ، فإننى أنا الآخر وليد شقوة وحليف آلام وأليف أحزان

فاطمأنت المرأة قليلاً ووهمت أنها همّت بالكلام الصريح ثم عادت فأطرقت ونظرت إلى الفراش بمينين واسمتين ثم صوبت نظرها فىّ وصمدت . وأنا أتحرق من الغيظ والصبر الطويل وأعجب لهذا السر الذى انطوت عليه أضلاعها وأنظر إلى فمها المغلق بأقفال الصمت القاتل ، ثم قالت : إسمع الآن يا كليمان ... لقد عرفت قبلك رجالاً ، صغاراً وكباراً ، فلم يسدوا حاجتى ولم ينقعوا غلتى ولم يمنعنى حبهم المشتمل من الاسترسال فى التمنى والتطلع والتخيل ؛ وكنت أحس فى نفسى فراغاً مجهول الملة ، لا يملأه شيء ألبتة ، وأجد فى مهجتى تلهفاً على نوع آخر من السعادة لا أفهم كنهه ولا أعرف ما هو ، ولكنى أشعر بشدة الحاجة إليه ... إلى أن التقيت بك فأحببتك وأخلصت لك وها أنا ذى أقسم لك ...

فقلت لها : لورا ! لورا العزيزة المحبية ! بالله عليك لاتقسمى ، ليس من وراء القسم إلا القطيعة ، فإن المرأة المحبوبة لا تقدم على الإيمان إلا إذا أحست بدبيب السأم فى قلبها فتريد أن تستوثق من دوام حبها ، وتمحو فكرة الشك من نفس عاشقها .

وبدأت الخبيثة تبكى وتنتحب وتمرغ خديها على صدرى ووجهى وتغرس أظفارها فى لحمى حتى كادت تدمى بدنى فقلت لها :

لورا ! لورا ! لا تؤذى عينيك الجميلتين بالبكاء ناشدتك الله : غيّضى مدامعك وكفكفى عبراتك فوالله ما قصدت إلى إيلامك أو إيذاء عواطفك ، ولا الفضول والتطفل على خصوصياتك وأسرارك ودخائلك وإن كنت أجدنى مدفوعاً بأقوى عوامل الرغبة إلى الاهتمام بنفعك والسعى وراء مصلحتك

عندئذ نصبت المرأة قامتها وقذفتنى بنظرة حشدت فيها كل ما تستطيعه من البغضاء والكراهية وقالت لى : أتحسبنى من النساء اللواتى تستدرجهن المنفعة ، إن قلبى أيها الرجل لايباع ولا يشترى ، إننى أعز وأغلى من أن أكون سلعة ، إن الرجل الذى يستطيع أن يدفع ثمنى لم يخلقه الله بعد . إنك تسخر منى وتهزأ بى ، ولكن اعلم يا كابيان أن قلبى إن نازعنى فى هواك لأخلعنه من صدرى لأسحقه تحت قدمى . ولم تكد تتم قولها حتى راعنى وآلمنى ما أبصرت من شدة اصفرارها وامتقاع لونها ، فأيقنت صدقها ولم يبق فى ضميرى أثر من شك فى إخلاصها وصدق مقالها

فقلت لديربال الذى كان يروى حديثه :

— ألم تكن صادقة بعدالذى وصفتَ ؟ فنهض ديربال ووقف بقامته المديدة وسط مقصورة القطار حتى كاد يصدم برأسه مصباح السقف الذى كان يشبه بطيخة من الزجاج الأزرق ، وصرخ :

« صادقة ! مخلصة ! ما ذا تقول يا هذا ؟ إعلم هديت الرشد — أنه ليس من شر فى العالم أو أذى أو ظلامة إلا فى رقاب النساء اثمها ووزرها ، وعلى رؤوسهن تبعتها ومسؤوليتها . فقلت له:موسيو ديربال هدئ روعك ! فقال : تكاد نفسى تطير شعاعاً كلما التقيت بساذج مثلك ، لا يزال يحسن الظن بالجنس اللطيف . إن النساء أغلظ أكباداً من أن يتألمن شديد الألم أو يكترثن عظيم الاكتراث عند رؤية مناظر الشقاء ومشاهد البلاء والمحنة — فهن ينظرن إلى مأساة الحياة تمثل على مسارح الدنيا ولا يكاد يخفق لهن بالأسف جنان ، أو تسيل لهن من الرحمة والرثاء أجفان . ولكن دموعهن تنهمر من أعينهن كالمطر إذا أردن أن يمثلن دوراً باهراً . على أننى لا أحب أن أفسد سياق القصة بهذا الاستطراد .. عند ما رأيت بكاءها وغضبها ، آمنت بصدقها ولكن هاتفاً كان يهتف بى من أعماق نفسى أنها كاذبة . كذلك كان شعورى ، وإنه لشعور صادق وهو مزية لم تزل تميز أسرة ديربال منذ أقدم الأزمان ، وقد ورثتها عن أبى الذى ورثها عن أبيه ، وما زلت فى كل مسائلى وشؤونى أأتمر بأوامر هذا الهاتف فأهتدى إلى الصواب وأوفق إلى أحسن المواقب . فقلبى حدثنى بأن لورا خادعة خائنة ، ولكننى كنت جد حريص على إتمام سعادتى فى تلك الليلة وأخشى أن تكدر صفوها بالعويل والنواح ، فدنوت منها وأخذت يدها بين راحتى وضممتها إلى صدرى وقلت لها :

أنظرى إلىّ واصغي لقولي ! سيأتي يوم تعلمين فيه أن سلوكي معك الآن لم يصدر عن رغبة فى إسخاطك أو إساءتك ، وغايتى أن أبذل كل ما فى طاقتى لإسعادك ورد الأذى عن شخصك المحبوب ، أتوخى بذلك أن أكون أصدق صديق لك وأنصر نصير فى حياتك . وكنت أحسب هذا القول اللين الذى صدر عن إخلاص وشفقة يصل إلى أعماق نفس تلك المرأة التى ألقت شباكها على قلبي ، ولكن لشد ما كانت دهشتى عند ما قالت : كلكم سواء . لا فرق بين الواحد والآخر ؛ كلام عذب ووعود معسولة ، وقلوب سوداء . فقلت لها : كلكم ؟ كلنا ؟ إلى من تقصدين يا لور ؟

فقالت : أقصد إلى جنسكم جنس الرجال الخائنين، فانكم تبذلون قصارى الجهد حتى تنالوا مآربكم من المرأة التى تخدعونها بحبكم ثم تعرضون عنها . فذعرت من قولها لأن الدهشة كانت أقل من أن تكفى فى مثل هذا الموقف وقلت لها : هل أستحق منك هذا التأنيب وأنت التى قلت إننى ملأت فراغ قلبك ، وفرجت أزمة نفسك وبكيت منذ هنيهة حتى عميت وبللت صدرى بدموعك ؟

فقلت لكليمان دربال الشاعر : كان عليك أن تكتفى بهذا القول منها ثم تقطعها إلى الأبد فاذا ينقصك بعد هذا البرهان على اعوجاجها وتقلبها ، أنت يا من تقول إن سريرتك تهديك ، وهاتفك يدلك . فلم يتحرك دربال في مضجعه وقال :

— أنت رجل سياسى ناضج . ولكنك طفل فى حياة الحب . لو أن الإنسان كان خالياً من العواطف لأبصر الأشياء كما هى وعلى حقائقها البحتة المجردة ، ولكن الإنسان لا يتأمل الدنيا وأشياءها وشؤونها بقلب فارغ وفؤاد خال وشعور بارد جامد مثلكم أيها الساسة . ولكنه فى معظم حالاته إن لم يكن فى كلها ينظر إلى الدنيا وأشيائها بنفس مشغولة بعاطفة واحدة أو أكثر ، فإذا نظر رجل مثلى إلى إنسان أو شيء من وراء عاطفة الحب متخذاً من هذه العاطفة منظاراً ومجهراً يتأمل به ذلك الشيء كان خليقاً ألا يبصره على حقيقته وكنهه ، بل يراه مزخرفاً مُزَيناً بشتى صفات الوهم والخيال ، ولكنها أحق فى نظره من الحقيقة ، فهى وإن كانت في نظر غيره وهمية لكنها فى نظره كائنة موجودة بل مرئية ملموسة

— إذن كنت يا موسيو دربال تحبها إلى الحد الذى يحجب عنك الحقيقة وراء ستار من الأخيلة والأوهام

— أحبها ؟ لم أكن أحبها بذاتها ، ولكن كنت أحب الحب فيها . وإنها لعاطفة أقوى من حب المرأة لأنها أحدثت فى نفسى شعوراً غاية فى الحدة والشدة ، كان يلتهب فى قلبي ويتأجج فى سويدائى فأضيق به ذرعاً ، وكنت أبرز ذلك الشعور فى شعرى وقصصى التى فَرّجت عن نفسى وكشفت غمى وسرّت همى . فكنت أشعر كمن أخرج جمرة من بين أحشائه ، أفاهم أيها السياسى ؟ جمرة من بين أحشائى

وفى تلك الليلة التى بدأت كأسعد ما تبدأ ليالى الغرام ، وأوشكت أن تنتهى كأسوأ ما تنتهي مآسى القطيعة صحت عزيمتي على مفارقة تلك المرأة فراقاً لا لقاء بعده ، فنهضت مترفقاً وارتديت ثيابى فى هدوء

قلت لك إننا كنا نعيش فى قرية شاربونيير، إحدى ضواحي جرينوبل فى منزل صغير جميل أعدته لنا مدام بوديه، وهي امرأة من أهل البيوتات الكريمة قعد بها الدهر، فانقطعت للرزق من سبيل إيجار المساكن المؤثثة على أجمل طراز وأرشقه. وكنت أحب أن أطلعها على حقيقة أمرنا لعلي أفوز منها بمشورة ناصحة لأنى لمحت فى عينيها وميضاً يوشك أن يكون إفصاحاً بشفقتها على من تلك المرأة المتقلبة المتحكمة، ولكن سكون الليل الذى كنا فى آخره وحرمة الهدوء السائد على الكون وذكرى الساعات القليلة التى قضيتها في جنب لورا، وقد تكون من ألذ وأمتع ساعات العمر، دعتني إلى التريث والصبر حتى يتنفس الصبح

فلما رأتني لورا ألبس ثيابي قالت: أتتركني هكذا آخر الليل؟ أو يطاوعك قلبك لأنني أفضيت إليك بعصارة قلبي وأطلعتك على ما لم أطلع عليه أحداً قبلك من خلق الله؟

فنظرت إليها فإذا بى أراها وقد تغيرت معالمها — وجه حسن الملامح حقاً ولكنه جامد التقاسيم، كأنه قد صب فى قالب من حديد! فلست ترى به أدنى دليل على رقة العواطف أو أقل شاهد على ذكاء القريحة، فكان هذا الجمود فى عينى أسوأ أثراً وآلم موقعاً من مقابح الخلقة ومساوئ التقاطيع

فقلت لها: أجادة فيما تقولين يالور؟ أم هازلة عابثة، تبذلين القول الجميل لتستبقيني بجانبك حتى الصباح، فإنى أعلم أنه ليس شئ أشق على نفس المرأة من أن يهجرها عاشقها فى مضجعها... ولعلك تخشين أن يتجدد حبك — إن كان فى قلبك حب فى تلك الفترة القصيرة التى سوف تشعرين فيها بالوحدة بعد انصرافى من هذا البيت، وسوف تساورك الشكوك وتستأذن الغيرة على قلبك، حاسبة أننى ما غادرت فراشك إلا لأندس فى أحضان غانية أهواها، أو أتصيدها نكاية بك وانتقاماً منك. ولعل الذهن المريض أو الخيال السقيم يصور لك أننى ارتجلت تلك الشادة، وابتكرتها وارتجلت الشقاق وفتحت باب الشجار على مصراعيه لألتمس لغضبتى عذراً، ولأبرر موقفي منك إذا عاتبتني أو حاولت إرضائى. فأنت يالور كظلى إن تركتك تبعتنى، وإن تبعتك تركتنى، تعملين خلاف ما أريد، حباً في معاكستي

وكانت المرأة صامتة. وجعلت نظرات الحنق تتطاير من عينيها الغاضبتين تطاير الشرر عن ناره، والنبل عن أوتاره، وقد حاولت أن تتظاهر بعدم الفطنة إلى إشارتى وعدم الشعور بها، فقلت لها: من ذا الذى أغراك ياصديقتى الخبيثة بأن تمثلى هذا الدور المنكر أمامي؟

ودنوت منها وهى لا تزال رابضة فى فراشها وجلست على حافة السرير متلطفاً وقلت لها:

— إن شئت بقيت، وإن شئت ذهبت، وأنا على الحالين راض عنك ما دمت لا تحملين لى بين جنبيك الناعمين حقداً، فقالت:

— أحمل لك حقداً؟ وعلام؟ ألأنك تغادر بيتى وبيتك كما يغادر العشراء مضاجع المحظيات قبيل الفجر ليعودوا إلى بيوتهم قبل أن يفضحهم نور النهار؟

ابق إن شئت، ولكن على ألا تمسني بخير

بشر ، ولا تفاتحني فى أمر من الأمور التى أسقطناها من حسابنا . ثم بدا بوجهها من آيات السخط والضجر والتبرم مالم أر مثله قط فجعلت لا أدرى أى مقدار من هـذا السخط والاكتئاب كان فطرياً غريزياً فى خلقها وأى مقـدار كان طارئاً لعلة من العلل حتى أزالت هذا الشك ، بأن تناولت من جانبها طرحة من حرير ليون الفاخر ، كنت أهديتها إليها فظننت أنها تريد أن تتلفع بهـا ، ولـكن المفتونة تناولتها بيد عنيفة خرقاء ، ومزقت حواشيها كل ممزق — فنهضت من جانبها وقد علمت أن ما كان يلوح على وجهها من دلائل السخط والاشمئزاز إنما كان عن غريزة شر وشراسة ، وبحيزة غلظة وجفاء ، وليس لسبب حادث أو علة طارئة

وقصـدت إلى الباب أعالج رتاجه لأغادرها خشية أن يزداد شرها فيحدث بينى وبينها مالا تحمد مغبته ويورث الندامة ، فانتفضت من الفراش وطارت إلىّ ، وقبل أن أدرك ما تريد طوقت عنق بذراعيها وهى تجهش بالبكاء وقالت :

— كليمان ! كليمان ! بربك لا تتركني وحيدة . عد إلىّ وأنا أعاهدك على أن أجملك أسمد المشاق ! ألم تفهم يا غادر ؟ إننى أحبك من أعماق قلبي المحطم ، ولـكن كبريائي أقوى من حبي ، فلا أستطيع أن أبوح لك أو أسترحمك . هل أنت أعمى فلا ترى شـدة وجدى ولوعتى عليك ؟ ثم لم تلبث أن ركعت وتشبثت بساق كما يتشبث الطفل الخائف بركبتى أمه ودفنت وجهها النادى فى ثنايا معطفى وقالت :

«ها أنا ذى أمرغ خدى فى تراب رجليك ، وأنا التى لا أستحق أن أربط شراك نعليك ، فاعف عني واغفر لى واصفح وراجعني تجدني أطوع من بنانك لا أطيق هجرك ولا أستطيع الحياة بدونك ...

فوحقك يا صاحبي بكيت ، وانفجرت فى قلبي ينابيع الرحمة وأهويت عليها تقبيلاً وضماً وحملتها بين يدى كالحمامة الوادعة إلى الفراش الذى كان لا يزال دافئاً من أثر رقادنا ، وما زالت ترتعش بين ذراعى وتبكي وتتأوه ، وتئن ونحن وتشهق حتى صالحتها وضممتها إلى صدرى وجففت دموعها براحتي وقلت لها : عديني وعاهديني !

قالت : أعدك وأعاهـدك على ما ترغب ! أنا جاريتك وأسيرتك وملك يمينك فاصنع بي ما شئت وكن قاسياً فلا أستحق رحمتك

قلت : لا أطلب شيئاً من هذا ، بل عاهديني على ألا تعبسى ولا تقطبي جبينك ، ولا تكرمى محاسن وجهك ، ولا تستشيطي غضباً ، ولا يجن جنونك بعد الليلة ...

فقالت : أعدك وأعاهدك ، ثم نهضت وخلعت عني ثيابي في عطف وحنان . وكانت لها طريقتها فى تناول أرديتى حين ألبسها وحين أخلعها حتى لتشعر أنها تهبها شيئاً من حبها لصاحبها . وتقدمت نحوى وعلى وجهها نور البشر والطلاقة ، وفى شمائلها معنى الصراحة والحفاوة والفرح بالصلح الذى تم فلمّ شملنا بعد شـتاته ، ثم أخرجت من قمطرها قدحاً فضياً كبيراً إغريقى الصنعة وملأته بما احتوته القنانى من النبيذ الأحمر وقبضت عليه بكلتا يديها وسقتنى ثم شربت وجلست أمامي وأخذنا بأطراف الحديث فما لبثت أن وجدت فى سهوله حديثها وعذوبته

ما أزال سؤر ريبتي ونفى حثالة شكوكي، وبعد هنيهة أخذت تتبسط وتنطلق وتتحلل من قيود الكلفة السابقة إلى أن بلغت حدود الثرثرة والهذر والاسترسال فى سخافات القول وتفاهاته، والمرء منا نحن الشعراء يستملح هذه المفاتن من الأنثى الجميلة إذا كان فى حلاوة الفم الناطق بها ووميض ثغره ورخامة صوته عوض عن تفاهته وقلة قيمته. فأفرغنا أقداح الشراب مثنى وثلاث وما زلنا نشرب حتى روينا. ثم رشفنا ما شاء الهوى من أقداح الغرام...

* * *

وقف القطار فى محطة ليون ونادى المنادى بأن مهلة الانتظار أربعون دقيقة كاملة وأن بالمحطة مقصفاً للطاعمين والشاربين. فنهضت ودعوت ديربال إلى النزول فتململ فى فراشه ثم تمحل الأعذار، زاعماً أنه يحب تلك المدينة ذات الدوى والطنين تحت أروقة الظلام وسرادق الظلماء، فقلت له: إنك تصف ليون منذ عشرين عاماً، أما الآن فهى عروس المدائن وبهجة العواصم، ومسرح الغوانى، وقطب دائرة المغانى، وما زلت به أغريه حتى نهض إلى خوان المقصف وعاد إلى معاقرة شيطانه الأخضر ثم عدنا إلى مقصورتنا فى القطار قبل أن يدق ناقوس الرحيل بفترة وجيزة. وعاد ديربال إلى حديثه بلسان دافق وقلب خافق، وما زالت عجلات القطار يسمع صريرها وهى تقطع بنا مئات الأميال فى عالم الليل القديم، فقال:

— لعلك لو زرت شاربونيير تعرف جمال ما يحيط بها من الحراج والغاب. وكانت لور عقيب مصالحتنا تحثنى على الخروج بقية اليوم، فنراخى السير، ونسعى رويداً نلتمس فى أعماق الغاب مكاناً قفراً وبقعة خالية، لا يبصر بها عاذل، ولا يغشاها رقيب؛ ثم نبتغى بين الأشجار الّلفاء مجهلاً غامضاً خفياً، نكون أول من أفضى إليه من بنى الإنسان، فنأوى إليه، ونطمئن فيه، آمنين ألا نصاب بثالث يضايقنا بدخوله بيننا وبين الطبيعة. وفى تلك البقعة كانت عروس الطبيعة تتجلى فى أجل منظر وأحسن زينة، ويخيل إلينا، أنها تجدد صورها وتبدل أشكالها وألوانها، في كل آن ولحظة. وإنى لا أكتمك أننى فى أوقات تلك الخلوة كنت أتصور وجه معشوقتى كاحدى بدائع الطبيعة، يزيدك حسناً كلما زدته نظراً، وكأن جمالها من تجدده متنقل للعين فى صورشتى متعاقبة، فلا تسأمه العين ولا يمله المتأمل مهما طال النظر إليه. وكان فى جلال الأشجار وفى أنواع الريحان والأزهار ما يملأ أعيننا جمالاً، ولشدة ما ارتبطت روحانا كنا ننطق بعبارات متحدة فى اللفظ والمعنى. وهذا توارد الخواطر الذى يمثله امتزاج الروحين واندماج الذهنين كقولى لها: إذا ضرب الدهر يالور بينى وبينك، وكان الفراق على الرغم منى منك ثم افتقدتنى، فالتمسينى يا نور عينى في هذا المكان الذى نما فيه حبنا وترعرع، وازدهى زهر غرامنا وأينع فصاحت فى نشوة الفرح وقالت:

— صدقني يا كليمان، إننى صغت هذه الجملة بألفاظها ومعانيها وهممت أن أقولها لك «فالتمسنى يا نور عينى ...» فسبقتنى إليها ...

* * *

مر الربيع وتلاه الصيف وأقبل الخريف وولى

وجاء بعده الشتاء ، وكنا قد هجرنا الغابة وموطننا الخفيّ ، وانقطعنا عن الذهاب إليه بضعة أسابيع . وعدت يوماً من جرينوبل إلى شابونيير قبيل الظهر وقصدت إلى عش غرامنا في المثوى الذي نقطنه ، وكنت أحمل بين يدى هدايا وتحفاً وأزهاراً للورا كعادتى كلما وجدت رزقاً فى خزائن باعة الكتب الملاعين ، أو وصل إلى يدى نقود من دخل أمي التى تجد وتكد فى حرث مزرعتنا فى الهوت مارن ، أو فاضت بعض حقوق التأليف المسرحى من بين أنامل هرتز ذلك اليهودى الشحيح الذى كان يدير ملعب سلستان ، ويمثل بعض قطعى على خشبة مسرحه . وفى ذلك اليوم الذى لا أنساه تجمعت لدىّ أرزاق من مصادر ثلاثة ، ففرحت بها وحملت الهدايا إلى لور التى تخيلتها تنتظرنى كعادتها متكئة على إطار النافذة لتحيينى عن كثب ، إذا ما دنوت من سور الدار ، وكنت أشعر بالشباب والعافية ، وأحس دفء الحياة التى ينفخ الحب فى نارها . وأعتقد أننى لست وحيداً فى هذه الدنيا ولا شقيًا ، وما أنا بحاجة إلى إيناس الأصدقاء والخلان ، ما دامت هذه المرأة تحبني . فلما دنوت من الباب رأيت مدام بوديه وزوجها يتهامسان على صورة لم أعهدها وكان الإشفاق والحنان باديين على وجه المرأة ، والسخف والخبث مرسومين على سحنة زوجها . كان ذا وجه مُنَذَّكر قبيح ، ملتف اللحية ، كث العارضين ، ذا صوت غليظ أجش . وكان أهل الضاحية يسمونه الصنم ، والقطب المتجمد الشمالى ، وبرذون عازار (١) . فكان أول ما قاله لى على غير عادة سابقة : كم الساعة وهل تمطر السماء اليوم ؟ وهل تناولت غداءك ، وماذا أعددت للمفاجآت ؟ فابتسمت لزوجته التى كانت مثال الوقار والحسن الذابل ، فلم ترد على ابتسامي بمثله ، بل ألقت على زوجها نظرة كطعنة الخنجر بلا أحد ، ثم قالت : ضع حملك الجميل ها هنا أيها الشاعر الظريف ، ولا تكبد نفسك مشقة الصعود به ، فهذه وظيفة تؤديها الوصيفة

فاطمتها وقلت وأنا على أحر من الجمر للقاء لور: حتى أجيب على أسئلة بعلك المحترم !

فقالت : لا عليك يا سيدى ! فإن للقردة والسنانير لغات كما لشعوب البشر ، وإن لضفادع هولاندا نقيقاً أشبه بأصوات بعض الرجال ، ولعلك لا تعلم أن الاسم الذى يحمله يدل على ... (١)

(١) كلمة Baudet وهى اسم الرجل معناها جحش وهو الحمار الصغير

(١) إشارة إلى اسم الجحش وفى أسماء الفرنجة كثير من هذه الغرائب

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

فضحكتُ . ولكنها لم تضحك واستمرت فى تأنيب زوجها بالمجاز والتورية والكناية وأسلوب الحكيم « وعندى أن كل إنسان لا يضبط منطقه وليس له على لسانه سلطان يصرفه فى وجوه الصواب من القول ، ويجريه على أصول الحديث المشروعة وقواعده المألوفة فإنما هو مقلد لأحد أصناف تلك الأنعام ، يحكى عجمتها ، وعلى هذا القياس يكون الثرثار المهذار كالقرد والببغاء ... »

وقد شرب زوجها (بوديه) هذه الكأس حتى الثمالة ، ولم ينبس ببنت شفة !

فلم أفهم طبعاً سبب هذه الحملة من المرأة المؤدبة على زوجها الزنيم ، وإن كنت عهدتها لاتقيم له وزناً ، وتماشره على حساب الماضى ، وقد ولى الشباب وذوى الجمال وهدأت ثائرة الهوى فى نفسها واقتنعت أنها لن تكون فتنة للعالمين ، فأخلق بها أن تخلد إلى الراحة بجوار مذود هذا الذى اسمه وصوته من أنكر الأسماء والأصوات

ثم دعتنى السيدة للجلوس وأمرت الخادم أن تخفف عنى عبء الهدايا التى أحملها . وكان المطر بدأ يهطل ثقيلاً ثم انهال البرد بسرعة فائقة ، فعجبت من تكهن « الجحش » بالمطر وهنأت نفسى ببلوغ الدار قبل تساقطه ، ومنيتها بالدفء فى الركن الركين حيث تنتظرنى لور بالطبقة العليا من الدار

ولكن مدام بوديه اكفهر وجهها وتجهم ، وكلما زاد انهمار البرد زاد وجهها تقطباً وعبوساً . أما زوجها فكان قد ولى الأدبار بعد أن عبث بلحيته الدكنة الكثة بأنامله الطويلة القذرة ، فدنت مدام بوديه فى رفق ونظرت إلىّ ، فقلت لها : لِمَ أراكِ مقطبة الجبين على غير عادتك وقد عهدتك أبداً هاشة باشة ؟ أيقبض نزول البرد نفسك حتى هذا الوجوم ؟

فقالت : إن الآنسة خرجت منذ الضحى ولم تعد ، فأخشى أن عنتاً يصيبها لدى عودتها ، لأنها لم تتخذ لهذا الهبوب المفاجئ عدته

فقلت : الآنسة ؟ ابنتك ؟

قالت : كلا : الآنسة لور صديقتك

فكدت أصعق ، لا من وقع الخبر ، ولكن من شماتة بهيمة الأنعام السيور(١) بوديه ، فقد أدركت الآن سر تهكمه وسؤاله عن الساعة والمطر والغداء

فقلت لمدام بوديه وقد لمحت في عينيها دليل الشفقة علىّ : وبم تشيرين علىّ في هذا الموقف الحرج ؟

فقالت : إما أن تنتظرها وإما أن تبحث عنها ، فقد رأيتها جانيت تسلك السبيل المؤدى إلى خان « الجواد الأبيض »

فقلت : الجواد الأبيض ... آه ! إنها ذهبت إلى الغابة التى تخلو بها أحياناً ، ونهضت أقصد إلى الباب فاستمهلتنى مدام بوديه حتى أحضرت مظلة بالية أتقى بها البرد الذى ما زال مستمراً على شدته

ولما بلغت خان الجواد الأبيض واستدرت فى الطريق الواصلة إلى الغابة كان الثلج إذ ذاك يتساقط في فضاء الجو ، والريح تصرخ وتعول ، ومصاريع النوافذ يشتد اهتزازها ويرتفع صريرها ، وكل شىء صادف عينى وصافح أذنى يسنح بالشؤم طائره ، ويجرى بالنحس فأله . وكنا نقطع الطريق فى أيام الصحو فى ساعة ، فما بالى اليوم والريح تضرب

(١) يقال سيور للرجل الذى لا يسوده المتكلم بلفظ موسيو

وجهى كأنما تريد صدى وردى ، وتملأ فراغ المظلة فتحطم أسلاكها الدقيقة وتمزق قماشها البالية ، وتجذب بأطراف ردائي كأن لها عندى ثأراً ، فرأيت عجلة لبان يقصد إلى المزارع النائية ، وهو بلا ريب يمر بالغابة فاقترحت عليه أن يسمح لى بمصاحبته لقاء الأجر الذى يطلبه ، فتلطف وقبل ؛ وظننت أننا نبلغ الغابة في نصف الوقت الذى يقتضيه الراجل ، ولم يكن فى طاقتى أن أحادثه أو أسأله وا كتفيت بأن تسلقت المركبة وتخلصت من المظلة مستهدفاً لأخطار الطريق ، فإنها لم تكن تغنى حيال هذه العاصفة الهوجاء . ولم نكد نخرج إلى العراء حتى ارتفعت الريح وهبت علينا زوبعة ثلجية أعشت أعين الجواد وقائده فلم يبصرا شيئاً ألبتة ، واختفى عليهما الطريق وسدت فى وجهيهما المذاهب ، وغابت الكائنات أجمع ، وكل شىء فى ضبابة كثيفة صفراء جعلت شظايا الثلج خلالها تتساقط وتتهاوى ، واختلطت الأرض بالسماء ، وسار الجواد بالعربة على رِسله وكما شاء ، لا وجهة ولا قصد ، وفى كل لحظة يعثر فى كثيب من الجليد ، أو تنغرز حوافره فى جحر ، فكانت العربة لا تزال تقلب وتكب ، ووجدت أننى بالرغم من انقضاء نصف ساعة أو أكثر لم نصل إلى الغابة ؛ ومضى نصف آخر وما لاح لنا شبح الغابة فصممت على الانطلاق على أقدامى مستهدياً بالإلهام الربانى ، فإن الله أكرم من أن يتخلى عنى فى هذا الموقف الحرج . ونفحت اللبان بما أطلق لسانه بالشكر فنهاني عن مطاوعة الوهم وأنذرنى بالموت المؤكد . فلم أعبأ بانذاره وترجلت أخوض غمار الثلج بارادة قوية وعزيمة مدهشة . كل هذا والعاصفة فى أشدها لم تفتر ولم تسترح والجو مربد الجوانب مكفهر النواحى لم يستمد أدنى شىء من صفائه ، وكان الكلال قد دبَّ فىَّ وسرى إلىَّ الأين والإعياء وأقبل العرق ، نعم العرق يتحدر من جبينى قطرات كباراً بالرغم من أننى كنت لا أبرح مدفوناً إلى ساقى فى الجليد المتراكم . وأخيراً لاح على بعد شبح أسود ، فتوجهت نحوه حتى إذا دنوت منه ألفيته الغاية المنشودة والغابة المقصودة فتنفست وحمدت الله الذى قرب البعيد وهوَّن العسير ، ثم سرت بمحاذاة صف من أشجار السرو راجياً أن أعثر بالمسلك المؤدى إلى المستقر الذى كنا نلجأ إليه . وما لبثت أن أصبته فأخذت فيه وأمعنت فى ظلمات الغابة ، وكان الشتاء قد جرد الشجر من ملاحفه ، ولكن جوف الغابة بقى من عبث الرياح مصوناً

فاستردت طرفاً من نشاطى وميعتى واستجم لى بعض جأشى وطمأنينتى

فقد كان أخوف ما أخافه أن تفاجئ العاصفة تلك الفتاة المسكينة فترعبها وترهقها ، حتى إذا أيأسها الرعب سقطت مغشياً عليها ولا تزال كذلك حتى تدفن بالحياة تحت ركام الجليد . ولم يخطر ببالى أن طائفاً من الشرداء ، أو وحشاً فى صورة إنسان من الجانين أو طرداء الشرطة يفجأها فيفترسها

وما إن بلغت المكان المعهود حتى رأيت منظراً انخلع له قلبى ! فقد رأيت لور ... فى أحضان رجل بمأمن من الثلج والجليد ، لأن جوف الغابة كان مصوناً من عبث الرياح وحصيناً من عبث العاصفة . كانت التاعسة مجتمعة بين ذراعى الرجل وصدره كما كانت تطمئن إلى ذراعى وصدرى

وعند ما دنوت من مرقدهما نهض الرجل وقال بأعلى صوته : من أنت وماذا تريد ؟ فتنبهت المرأة ورأتنى فجزعت وارتاعت وزايلها الرجاء وامتلكها اليأس ، ثم استردت شجاعتها وعادت إليهما نخوتها

وبخورها ووقفت كاللبوءة التى تدفع الأذى عن أشبالها . وقالت للرجل :

اسكت أنت ولا تتكلم فهذا زوجى

فرفع الرجل قبعته ، فقلت له :

استبق غطاء رأسك ياسيدى فليس المقام مقام احترام .

فقالت : قبل كل شيء لا يحملك الغيظ على الشر قبل أن أشرح لك حقيقة الحال . ثم شرقت بدموعها وسالت عبراتها على خديها وأقبلت تسير نحوى وهى تقول : إنه رفيق صباى وأليف وحدتى قبل أن تمنحنى السماء نعمة التعرف إليك

وفى تلك اللحظة انقلبت الدنيا فى عيني بلون الدماء ، وهممت أن أتناول عنقها بيدي فأقضى على حياتها فى طرفة عين ثم أحطم رأسها بحجر . ولم أكن أبالى بالرجل الواقف أمامي ، ولكن الله أنزل السكينة على قلبي وقلت : إنك لست زوجتى كما زعمت لهذا الأحمق لتزيدينى حقارة فى نظره وتشهديه العبث بشرف القران فى سبيل حبه . لقد التقطتك من الطريق ، وقد انتهى ما كان بيننا . وإنى لا آبى أن أقتلك إلا لأنك أحط وأدنأ وأرخص من أن أدفع ثمن دمك بساعة في السجن أو بخبر فى جريدة ، فأسجل الغفلة على نفسى وأهبك منحة الاستشهاد والتضحية . لن أعود إلى البيت الذى عاشرتك فيه ولعلك تخلصين إلى هذا القديم بأكثر مما أخلصت لى . وعدت أدراجى لا ألوى على شيء

وفى هذه الأثناء كانت العاصفة قد سكنت والغيوم تقشعت ، وامتد أمامى على مدى البصر سهل مغشى بالجليد ، وقد صفا أديم السماء ولاحت الجوزاء لناظرى ، فأبصرت على كثب منى قرية صغيرة فيها أربعة منازل أو خمسة فأخذت سمتى إليها حتى إذا بلغت أول كوخ جريت إلى النافذة وطفقت أدق على بابها بيدى . فلم تكن إلا هنيهة حتى فتح مصراعها الخشبي وأخرج شيخ مسن لحيته البيضاء فسألته المأوى حتى أستريح من وعثاء التعب وشقة الخوض فى الجليد . فدعانى إلى كوخه وأكرم مثواى ، وكنت فى شغل شاغل فلا أشعر بالبرد ولا بالقرى ، ولكننى كنت متعباً فأعدت لى ربة الدار فراشاً فى إحدى الغرف فقضيت ليلة أرق وقلق . وفى الصباح سمعنا أجراس كنيسة القرية تدق دقات الفزع ، فلم تكن وفاة عادية ولا صلاة ولا زواجاً . فخرج الشيخ فيمن هلموا فهرعوا ليقفوا على الخبر ، ثم عاد يخبرنى بأن حرس الغابات عثر بقتيلين فى الغابة امرأة ورجل ، وأن أحدهما قتل صاحبه ثم انتحر ، والبحث جار عمن يرفع القناع عن سر هذه المأساة

* * *

وعند ما نطق ديربال بهذه الكلمة تذكرت الحقيبة الدبلوماسية ، تلك التى أنقلها معى فقد نسيتها فى مقصف ديجون عند ما كان الشاعر المغرم يتجرع عفريته الأخضر . إن أوامر كي دورسى (١) تحتم إن كنا على سفر ألا تفارق حقيبتنا التى تحتوى رسائلنا يدنا وعيننا لحظة واحدة ، فأنسانيها شيطان المرأة الخؤون . وقد كنت أفاخر بقوة ذاكرتى وقد صدق ديربال فى قالته « ليس من شر فى العالم أو أذى أو ظلامة إلا فى رقاب النساء أثمها ووزرها ، وعلى رؤوسهن تبعتها ومسؤوليتها » ففارقته وعدت إلى ديجون أبحث عن حقيبتى وقطعت حديثه ولم أعد أراه . ولكننى فطنت إلى أن المرأة التى أحبها وجن بها كانت أحد القتيلين اللذين دقت عليهما نواقيس القرية

محمد لطفى جمعه

(١) مقر وزارة الخارجية الفرنسية بباريس

الذكرى

أقصوصة مصرية

للأديب نجيب محفوظ

إذا لاحت فى الأفق القريب بشائر عيد الفطر خفت وطأة رمضان على النفوس ، وهوّن الفرح الموعود من جفاف شهر الصوم ، واهتزت صرامة التقشف فى الصدور تحت موجة طرب آن انطلاقها . هنالك تجد ربات البيوت أنفسهن فى مكانة الساحر يتطلع إليهن الصغار بأعينها الحالمة هاتفة بهن أن يبدعن آيات الكعك اللذيذ وأن يخلقن من المعجين كهيئة العرائس والحيوان والطير

أما جماعة الموظفين الذين تقضى عليهم أشغالهم بالتغرب فى أقاصى القطر فلا يشغلهم فى تلك الأيام مثل إعداد الحقائب والتأهب للسفر إلى بلدانهم حيث يسعدون بالعيد بين أهليهم وحيث تتحقق للأطفال ولهم أحلامهم

وكان من هؤلاء الأستاذ يوسف زينهم المدرس بمدرسة أسيوط الثانوية وأسرته المكونة من زوجه وابنتيه الصغيرتين ؛ فما أتى يوم الوقفة حتى كان الأستاذ وأسرته فى القاهرة بل فى القاهرة المعزية حيث يقع بيت المرحوم والده في (الدراسة) قريباً من مسجد الحسين . وكان البيت من البيوت القديمة باهت الجدران رث الهيئة ، يصعد إليه الصاعد على سلم ضيق متهدم الدرجات بغير درابزين ، حلزونى الشكل كسلم المآذن . ويتكون البيت من طابق واحد ذي ثلاث حجرات صغيرة الحجم . ولكنها كانت سفرة سعيدة ، ودواعى لذتها متوفرة من التنقل واستقبال العيد ورؤية الأهل والأحباب

ومهما يكن من أمر البيت من التفاهة والضعة فقد كان يوسف لا يطأ بقدمه أول درجة من سلمه حتى يرفرف قلبه فى صدره وتمتلئ عيناه بالأحلام وقلبه بالحنين ، ويذكر لفوره ذلك الطفل الصغير ذا الجلباب والطاقية الذى كان يقفز على هذا السلم صاعداً هابطاً كل يوم حافى القدمين ...

أي ذكرى وأى أيام ... !

وكان كل مكان فيه يحفظ لقلبه ذكرى تنعش النفس وتشرح الصدر سواء أكان ما تحمل نوعاً من مسرات الصبا أو لوناً من متاعبه وهمومه . وكثير من آلام الصغر التى يضيق بها الأطفال يجدونها إذا كروا إليها فى الكبر متعة ولذة وتفكهة فكان لهذا يطوف بحجرات البيت حالماً متذكراً كأنما يطوف بضريح ولى من أولياء الله ثم يستقر مدة إقامته فى أعزها عليه وأحبها إلى قلبه : فى الحجرة التى عاش فيها من عمره اثنين وعشرين عاماً بين عبث الطفولة وأحلام الصبا وآمال الشباب

والذى يقيم فيها الآن أخوه سامى وهو ابن عشر ويختم فى هذا العام دراسته الابتدائية . ويخيل إليه — أى إلى يوسف — كلما شاهده أنه يعيد تمثيل الحياة التى حييها مرة أخرى ، وأن الحجرة تشهد للمرة الثانية نفس فصول الرواية ولعلها بدأت تبسم وتسخر وتسأم ... وكان سامى يتخلى عن حجرته سعيداً مغتبطاً لأخيه الأكبر الذى ينزل من نفسه

منزلة الأب ويتولى من بعده جميع أموره ويتعهده بالتربية والمحبة

وقد لاحظ يوسف أن أخاه غيّر من نظام الحجرة ، وأنه نقل المكتب القديم إلى غير موضعه الأصلي وكان يحب أن تبقى الحجرة محتفظة بصورتها القديمة ، فسأله عن هذا ، وأجابه الغلام :

— إني جعلت المكتب بحيث إذا جلست للمذاكرة جاء نور النافذة من الجهة اليسرى كما أوصانا مدرس علم الصحة

فابتسم يوسف وقال :

« ما أسعد حظكم ياتلاميذ اليوم فإن لكم من مدرسيكم آباء رحماء يودون لكم الصحة والعافية ويشفقون عليكم من الأذى ؛ أما على أيامنا فكان الحال غير الحال والمدرسون غير المدرسين . وإني لأذكر العنت الذي كان يصيبنا — في نفس مدرستك خليل أغا — وما كانوا يلزموننا من حفظ البلدان والثغور والجزر والحاصلات . وكم من مرة مددنا على الأرض وألهبت العصى القاسية ظهورنا وبطون أقدامنا ... تلك أيام خلت ... أما أيامكم ....! »

ثم استلقى الأستاذ على كنبة واستسلم لتيار التذكر العذب التسلسل تاركا زوجه وأمه تتحادثان ما شاء لها الحديث ، وسامياً يجالس ميمي وفيفي الصغيرتين ويلاعبهما

ولم تنس أمه أن تأتي بمدفأة وتضعها في ركن من الحجرة لأن الشهر كان ديسمبر والجو شديد البرودة يزيد من شدة قساوته الصيام ؛ وكأن السماء أشفقت من البرد فتلفعت بأردية من السحب — أضاء بعضها عن لون أبيض ناصع بهيج وأظلم البعض عن كتل دكناء كالجبال عند الغروب ، فانكمش جسده ، وتحفزت روحه للوثوب وحلقت على رأسه الأحلام . وسرعان ما كرت نفسه راجعة عشرين عاماً في خط الزمن غير المتناهي ، وذكر عهد هذه الحجرة أيام كانت رفيقة صباه وشبابه وشريكة أحلامه وأهوائه وشاهدة أفراحه وأحزانه ومستسرة خباياه ومرجع نجواه . رباه ... إنه ليدير عينيه في أنحائها طمعاً أن ينفذ إلى تضاعيف جوها الخفي ويقرأ ما خط من حياته وما سجل من نوازع قلبه وعقله ووجدانه ... ولقد تأتي عليه أوقات يغمره تيار الحياة وتكتنفه متاعبها فينسى ذكريات الماضي في هموم الحاضر ويخيل إليه أن ذاك الصبي الذي عاش وفرح وتأمل وأمل ويئس شخص غريب عنه لا تربطه به رابطة ألم أو أمل . وقد تأتي عليه ساعات أخر يثوب فيها إلى نفسه فينسى حاضره هارعاً إلى الماضي البعيد ؛ وتقدم إليه حافظته الثائرة أزاهر الذكريات واحدة فواحدة حتى يخال أنه لم يعبر الماضي إلا منذ ساعات قلائل وأنه لم يجئ إلا به وله

وها هو ذا الآن تغشاه ساعة من تلك الساعات الحالمة فتحلق روحه في آفاق بعيدة كالذاهل في غيبوبة مغناطيسية ، وتتدفق عليه الصور الحالمة في غير ترتيب زماني ، فيذكر كيف كان يستيقظ — في نفس الحجرة — عند الفجر ، ويدلف إلى النافذة يشاهد بهاء الفجر المشتمل السكون بثوبه الأزرق والنجوم من فيض الحياة بها تكاد أن تتكلم بأحاديث الأزل ، ويرى البيوت كالأشباح النائمة ، ومئذنة سيدنا الحسين في المكان الأوسط منها كالحارس الحفيظ ؛ ويستمع إلى صياح الديكة المنتشية ببشائر النور وقطر الندى حتى يشق الفضاء صوت المؤذن داعياً « الله أكبر » فيهبط على القلوب هبوط الصحة والطمأنينة فيملأها نشوة وبهجة وحنيناً ، ثم يصلي الفجر فاذا انتهى

أشعل المصباح وقعد يذاكر ويحل تمرينات الحساب ومسائل الهندسة

وإنه ليذكر لهذه المناسبة عهد التلمذة الغريب، الذى كان يرسف فى أغلاله كالسجين أو الأسير المعذب، يجهد عبثاً أن يقوم بما يفرضه عليه البرنامج الثقيل المرهق، وتضطرب أعصابه خوفاً ورعباً من المدرسين وعصيهم الذين كان يكفى تذكرهم لتجميد الدم فى العروق أو قطع الأنفاس فى الصدور. ولا عجب فقد كانت القسوة هي السياسة المرسومة لتربية التلاميذ، وكان يظن أنها الطريقة المثلى لخلق الرجال الفضلاء، فكان عهد التلمذة عهد رعب وإرهاب وعنت. وإنه إذا جاز له الآن أن يشبه المعلم بالفنان يحاول أن يبدع من مادته أجمل الآيات وأمتعها فلا يستطيع أن يشبّه مدرسيه القدماء إلا بمحصلى الضرائب الأتراك ... ولكنه بالرغم من هذا لا يذكر ذاك العهد حتى يملوه الابتسام ويغمره الفرح كأن مافيه من مسرة فهو له وما فيه من ألم فهو لغيره؛ يراه كما يرى المشاهد الرواية التمثيلية الحزينة فيتمتع بأثرها الجميل

وفيما هو سابح فى بحر أحلامه انتبه فجأة على يد ابنته الصغرى ميمى وهى تهزه، فالتفت إليها متبرماً وصاح بها متنهراً:

« إيه يا بنت ؟ ... »

فسألته بصوتها الرفيع المتقطع وهى تشير إلى حائط الحجرة:

«هل حقاً أنت الذى رسمت هذه الصورة يا بابا؟»

وتتبع ناظره إصبعها إلى هدفها من الحائط فى المكان الذى كان يشغله المكتب قبل أن ينقله سامى فرأى صورة طفلة صغيرة فى نصف الحجم الطبيعي سرعان ماتذكرها عقله وقلبه، وذكر بعض الظروف التى دفعته إلى رسمها منذ عشرات السنين ... وعجب كيف شاءت المصادفة أن تنبه ابنته إليها ساعة تهيم روحه فى سماوات عهدها الحلو المنطوى فكأنما سخرت الصورة الطفلة الصغيرة لتذكير أبيها الغافل

قال سامى:

— لاشك أنك أنت يا أخى الذى رسمتها فأنت صاحب الحجرة القديم، وأنت الذى تستطيع أن تجيد الرسم ...

وقالت ميمى مرة أخرى:

— بابا ... اشترِ لى عروسة مثلها

ودلف يوسف إلى قريب من الصورة وتأملها بعين لو رأت زوجه نظرتها المشوقة لسألت باهتمام عن الصورة وتاريخ رسمها وأجرت فى ذاك تحقيقاً عسيراً، وكان ما يقى منها ظلاً خفيفاً طمست منه بعض معالم الوجه، ولكن بقى منها محافظاً على وضوحه مفرق الشعر الغزير المرسل فى عبث فتان، وما يبين عن جمال الأنف الصغير الدقيق. فالشكر لله إنه كان يجيد الرسم منذ الصغر، وإلى جانب الصورة كانت مكتوبة هذه الأبيات:

أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ
ـهوى واستمرت بالرجال المرائر
زع النفس واستبق الحياء فإنما
تباعد أو تدنى الرباب المقادر
أمت حبها واجعل قديم وصالها
وعشرتها مثل التى لا تعاشر
وهبها كشىء لم يكن أو كنازح
به الدار أو من غيبته المقابر

إن للصورة والشعر قصة قديمة كانت حياة قلب ناشىء اصطرع من جرائها فيه الأمل والألم، وتيقظت بسببها عواطف شتى وغرائز نائمة، وإن عفت آثار تلك الحياة من قلبه الآن كأنما فاضت من

غير منبعه واصطخبت فى غير ميدانه . وإنه لمن المؤلم المضحك أن يكون الحائط الحجرى أحفظ للود وأرعى للذكريات الجميلة من قلب الانسان العاقل .. وإن تلك الصورة وهذه الأبيات الشعرية لتذكره بأجمل ما وهبت حيـاته المنطوية بل أجمل ما تهب الحياة لبنيها ؟ تذكره بوهم الحب الطاهر ، الحب الذى يفيض من قلب طاهر لم تعركه التجارب ، ويخبئ أغراضه المرسومة منـذ الأزل خلف وجه ملاك سام ، ويخفى أنات الأرض وراء لحن سماوى ساحر ، ويغشى على الطين ستاراً كثيفاً من السحاب الأبيض الجميل

نعم لا يكاد يذكر التفاصيل ولا يحضره الترتيب الزمانى ، ولكن تندلع فى قلبه ألسنة من اللهب بين الحين والحين فيكشف نورها المتقطع عن صور عزيزة فاتنة من الماضى

***

كان المرحوم والده طاهى الوجيه سليم بك عاصم — من سراة القاهرة وأعيانها المبرزين — وكان يوسف يتردد عليه أحياناً كثيرة ، وما زال يذكر القصر العامر بحديقته الغنـاء وجدرانه الشاهقة وأبوابه العالية ونوافذه ذات الستائر المختلفة الألوان ، كما يذكر البناء الصغير المنعزل فى ركن من الحديقة ذا المدخنة الطويلة حيث كان يباشر أبوه عمله . وكان إذا زار أباه يجلس في ركن من المطبخ يشاهد عملية الطهى الغريبة ، وفن تحويل الخضروات والطماطم والطيور إلى أصناف شهية بهيجة اللون لذيذة الطعم ويلتهم ما يعطيه من اللحم والحلوى ويسمع فى دهشة الخدم وهم ينادون أباه بقولهم « ياعم زينهم » وما كان يظن أن شخصاً كوالده العظيم الذى يمتلئ قلبـه رهبة منه والذى تقف له أمه وإخوته كلما جاء أو ذهب يمكن أن ينادى بمثل هذا النداء الذى يخاطب به باعة الفول السودانى « وغزل البنات » ... ولـكنه ما لبث أن اعتادته مسامعه وألفته نفسه ، وطفق يدرك شيئاً فشيئاً مكانة والده من القصر المظيم وتبين البون الشاسع الذى يفصل بين واحد مثله وبين أهل ذاك القصر الذين لايدرى على أى وجه من الحياة يعيشون خلف تلك الجدران الهائلة

وهو لا يكاد يذكر تاريخ أول لقاء على وجه التحديد ، ولـكنه يرجح أنه وقع لأول عهده بزيارة قصر سليم بك وهو فى الثانية عشرة من عمره . وكان مطمئناً إلى مكانه المختار من المطبخ وفى يده قطعة (البقلاوة) ، وعلى حين فجأة دخلت إلى المكان طفلة فى مثل عمره لم ير مثلها من قبل ، كانت مستديرة الوجه ، مليحة القسمات ، خمرية اللون ، رشيقة القامة ، ينتثر شعرها الأسود الحالك خصلات على كتفيها ويلتقى وسط الرأس فى (فيونكه) حمراء ، ثم تنزل منه شعرات رفيعة مستقيمة على الجبين كرذاذ النافورة ، وترتدى فستاناً أبيض شفافاً ذا منطقة حمراء يكشف عن ركبتيهـا الصغيرتين ، فأثاره منظرها ، وجمدت عيناه عليها فى إعجاب ورهبة بعد أن أخفت يده بحركة غريزية قطعة (البقلاوة) وانتبه أبوه إليها فانحنى باحترام وهو يقول مبتسما .

— أهلاً وسهلاً بسوسن هانم

ولاحظ الرجل أنها تنظر إلى ابنه نظرة غريبة فقال يقدّمه إليها :

— هذا خادمك يوسف ... إبنى

فدارت عيناها الجميلتان بينه وبين أبيه فى صمت وسكون ثم ولت مسرعة فى خفة أخاذة ، وأسرع يوسف وراءها زحفاً على يديه وقدميه كالضفدع ،

فلما بلغ باب المطبخ أرسل بناظريه خلفها يشاهدها وهى تجرى فى الحديقة حتى أخفتهـا عن عينيه طرقاتها الملتوية . إنه يذكر هذا المنظر على توغله فى الماضى كأنما لمس حواسه بالأمس القريب ، ولا ينسى كيف أنه أيقظ نفسه وقلبه وخياله وبدل مواتهـا حياة حارة وركودها ثورة هائجة . فلما أن رجع إلى البيت ورقد — ربمـا حيث يرقد الآن — استحضر صورتها وخلا إليها واستغرق فى حسنها وبهائها … أى حسن وأى بهاء … رباه … هل تحوى الدنيا مثل هــذه الفتنة وهذه النظافة … لقد عاشر من جنسها كثيرات ، منهن أمه وأربع أخوات — تفرقن الآن فى بيوت أزواجهن — شتان ما بينها وبينهن ، إنهن من طين وهى نور ، وما كان يظن أن لها لحماً ودماً كلحمهن ودمهن ، أو أن يكون بداخلها معدة وأمعاء كبقية الإنس ، فنزهها عن هذا وعن غيره ، ونزلت من نفسه منزلة الملائكة فى نفوس العابدين …

وكان يوسف رقيق العواطف متوثب الخيال دقيق الحس كجميع هواة الرسم والفنون ، وكانت غريزته ما تزال راقدة فى سباتها الذى فطرها الله عليها فدبت فيها الحياة بعد أن نفخت فيها صورة سوسن من روحها العذب ، وغاب عنه حينذاك أنه يمثل فصلاً من رواية تكررت مشاهدها آلاف السنين ، وأنه يقع فى الأحبولة المنصوبة منذ الأزل لبنى الإنسان ، فظن أنه يكشف عالماً روحياً جديداً يطير إليه على جناحى الحب . إنه ليذكر هذا الآن فيتعجب لهذا الحب الغريب ، الحب الذى هو فلسفة الشباب الشاملة ، والذى يتسامى إلى معارج التصوف والتجلى وينحط إلى مهاوى القســوة والأنانية والقذارة وتكمن خلف جميع أوجهه تلك الغريزة التى هى أمضى سلاح فى يد الحياة … واقتطفت ذاكرته صورة أخرى من المـاضى الجميل لا يحسن معرفة موقعها من حوادث تلك الأيام ، ولـكنه يذكر جيداً أنه بعد اللقاء الأول غير مجلسه من المطبخ إلى مكان قريب من الباب ، بحيث يستطيع أن يشاهد منه الحديقة طمعاً أن يرى العروسة الصغيرة التى استبدت بأحلامه وأمانيه ، وإنه كان يراها فى صحبة أخوين لها فى مثل عمرها يركبون الدراجة أو يلعبون « بالبلى » أو يستبقون فى ممرات الحديقة الرملية !

فى جولة من جولاتهم عثروا به ، فلفت منظره الغريب أنظارهم وتساءل عنـه الصغيران فأجابتهما سوسن بأنه « ابن عم زينهم » فدنوا منه وأنعموا فيه النظر : فى جلبابه الباهت ، وطاقيته السوداء ، وقبقابه الصغير ، فجفل قلبه وهم أن يولى فراراً لولا أن صاحت به سوسن بصوتها العذب :

— لا تخف … ولتبق حيث أنت فلن يؤذيك أحد

وسأله أحد الصبيين : وقد نسى اسميهما :

— هل أنت ابن عم زينهم ؟ …

فأحنى يوسف رأسه أن نعم . فسأله الثانى وعلى فمه ابتسامة :

— هل أنت تلميذ ؟ …

فأحنى رأسه مرة أخرى أن نعم ، مما أثار دهشة بين الثلاثة ، فسأله الأول :

— وما مدرستك ؟ …

— خليل أغا

— فى سنه إيه ؟ …

— فى السنة الرابعة

ثم سكت يوسف لحظة يغالب رغبة فى الحديث

حتى غلبته ، فسأل الأخوين قائلا :

— وما مدرستكما ؟ ...

— الناصرية

— ولم لم تدخلا خليل أغا وهى قريبة من البيت ؟ ...

فبدت فى عينى الشقيقين نظرة إنكار وقال أكبرهما :

— الناصرية هى مدرسة الأغنياء ؟ وقال الآخر وكان أشد صلفا :

— أما خليل أغا فهى مدرسة الفقراء

وقالت سوسن :

— ماذا يهم بعد المدرسة إذا كانا يذهبان إليها فى السيارة ! ...

فردد يوسف عينيه بينهما وقد غلب على أمره واستخذى خجلاً ومهانة ، وكرهت نفسه الهزيمة فقال بدون داع ولا مناسبة وبصوت يدل على التحدى :

— أنا أول فرقتى ... وأجيد الرسم إجادة فائقة ... إلى بورقة وقلم ! ...

فنظر إليه الأخ الأكبر بعين الهزء وأخرج من جيب بنطلونه ورقة وقلماً وقال له :

— إليك ما تريد ...

وزاد اهتمام سوسن فاقتربت خطوة منه وقالت :

— إن كنت شاطراً حقاً فارسم كلباً

فبسط الصبى الورقة أمامه بثقة واطمئنان وجرت يده بالقلم فى ثبات وخفة ومهارة فصوّرت كلباً لا بأس به . ولما انتهى منه نظر إليهم نظرة فوز وظفر ، ونظر إليه الأخوان باحتقار وغيظ ، أما سوسن فقالت وعلى فمها ابتسامة رقيقة :

— الكلب موضوع سهل ... إن كنت شاطراً حقاً فارسم أوزّة ...

ولكنه لم يقهر أيضاً وذاق لذّة الفوز مرة أخرى ، فقال الأخ الأصغر :

— الرسم مادة تافهة

— ولكنى الأول فى جميع العلوم ...

— وهذا أمر تافه ...

فقال يوسف بحدة :

— إذا فما المهم ؟

فوضع الصبى الآخر يديه فى جيبى البنطلون وقال وهو ينظر إليه من عل :

— المهم أن تكون ابن بك ... وأن يكون لك مثل هذا القصر ...

وولّوه ظهورهم وذهبوا

هذا ما يذكره من تلك المنافرة الصبيانية ، ويذكر فوق هذا أنه عاد إلى بيته ذاك اليوم ينتفض من الغضب والحقد ويمتلىء كراهية للصبيين . أما سوسن فلم يكره منها قولا أو فعلا إذ كانت حبيبة عزيزة جميلة وكان حبيباً عزيزاً جميلا كل ما تقول أو تفعل . وكان مستمداً فى أعماقه أن يكره الخير ويحتقره إن وجد منها كرهاً له أو احتقاراً ، وأن يحب الشر ويعظمه إن آنس منها له حباً أو تعظيما ، إذ كانت تتبوأ من نفسه مكانة المثل الأعلى فى كل شىء ، فالخير خير بالإضافة لأفعالها ، والجميل جميل على قدر مشابهته لصورتها

إنه يذكر تلك اللوثة الهيامية كالمستفيق الذى يتذكر فعاله حين السكر الشديد ولم يتصل الحديث بينه وبين الأخوين بعد تلك المعركة الكلامية ، ولم يرهما إلا قليلا ، وكانا إذا مرا به مرا مقتحمين كأنهما لا يريانه ، أما سوسن فكان يراها كثيراً ، ولم تكن متكبرة قاسية كأخويها فكانت إذا التقت عيناها

بعينيه ابتسمت إليه أو بادلته كلمة تافهة كانت لديه ألذ من الصحة والعافية

وكان مرة جالساً القرفصاء وكانت تلعب في الحديقة على بعد قريب منه ، قافزة على حبل تديره خادمتان من طرفيه ، فلبث يراقبها بعينين مشتاقتين ويعد قفزاتها على دقات قلبه الولهان . وحدث أن ذهبت إحدى الخادمتين لبعض الشئون ، فنادته أن يحل محل الخادمة ، ولبى مسرعاً سعيداً مغتبطاً ظافراً وود من قلبه لو لم تنته تلك الساعة السعيدة أبداً ، ولكن الصغيرة تعبت فتوقفت تستريح ، وخشى يوسف أن تنتهى سعادته ويعود إلى مكانه وكان شديد الرغبة فى أن يحادثها وأن يستمع إلى صوتها العذب الذى يفعل به فعل التعويذة بالمسحور فسألها :

— هل تذهبين إلى المدرسة ؟

وكان يخشى ألا تتنازل وترد عليه ولكنه سمعها تقول :

— نعم ...

— أى مدرسة ؟

— لا ميرديديه

— إنه اسم غريب

فافتر ثغرها عن ابتسامة ظريفة يرى وميضها الآن منيراً فى ظلام السنين المنطوية وقالت :

— إنها مدرسة فرنسية

— ألا تتعلمين اللغة العربية ؟

فضربت بقدميها الأرض وقالت :

— بلى ... يدرسها لنا شيخ ... هى ثقيلة كريهة ... هل تحبها أنت ؟

— إنى أذاكرها برغم صعوبتها وأحفظ النحو حفظاً جيداً ... وأحب الشعر ... لماذا تكرهينها ؟

— هى ثقيلة جداً ، وقلما تستطيع ذاكرتى أن تحفظ شيئاً من قواعدها ، ومدرسها رجل ثقيل الدم يضع على رأسه عمامة مضحكة ...

فاضطرب وصعد الدم إلى وجهه وذكر طاقيته السوداء وما عسى أن تقول عنها ، ثم قال :

— كثيرون يؤثرون العمامة على غيرها

— هى فى نظرى على كل حال مضحكة ... ثم إن هذا الشيخ قذر ... لمحت مرة يده فرأيت أظافره سوداء كالطين

وهنا قبض يديه وود لو يخفيهما

ومن ذاك اليوم كان إذا نوى الذهاب إلى القصر قصَّ أظافره وخلع طاقيته ولبس الحذاء بدلاً من القبقاب . ومضت الأيام وهو على تلك الحال ، يرنو بالنظر ، ويسعد بالحديث الذى لا يمس الهوى ، ويعانى حباً مكتوماً ينمو يوماً بعد يوم . وكانت سوسن تستأثر بحياته جميعها ، الظاهرة والباطنة ، اليقظة والغافلة ، فكانت مثار أحلامه حين العمل وحين اللعب ، ولدى اللقاء ولدى الغياب وأوقات الفرح وأوقات الحزن وعند الصحة وعند المرض ، وكانت آخر فكر مودع عند النوم ، وأول خاطر مرحب عند الاستيقاظ . وكان حبه طاهراً سامياً ارتفع به من العالم الصاخب إلى حيث يطلع على العالمين كما تطلع الآلهة على المخلوقات ، إلا أنه لم يخل من الألم واليأس ، بل الحقيقة أن الألم واليأس كانا من مقوِّماته الأولية لأنه لم يغفل لحظة عما يفرق بين طبقتيهما ، ولم ينس الحقيقة المرة التى جعلت أباه يقدمه لسوسن فيقول : «هذا خادمك يوسف» فهو خادمها ما فى ذلك من شك ، وهو وأهله من المحسوبين عليها والعائشين على فتات مائدتها

حقاً إن الحب من دوافع النشاط والاجتهاد والتطلع إلى المجد ولكنه شك فى قدرة الحب على

خلق معجزة عظيمة مثل ربط آنسة جميلة كسوسن بابن خادمها البائس يوسف بن زينهم ...

كانت تلك الأفكار السوداء تعصر قلبه عصراً وتسكب السم فى دمه والمرارة فى ريقه ، ويبلغ به الحزن أنه كان يرمق أباه أحياناً بنظرات الغضب والسخط لأنه كان القضاء الذى حكم عليه بالضعة وأنزله حيث هو من الذل والهوان ...

ولكن كانت تمسه السعادة في لحظات أخرى فيسأل نفسه : لم ترضي بالحديث معى ؟ لم تداعبنى وتسألنى ؟ لماذا لا تتعالى عن مصاحبتى ؟ لماذا تبسم فى وجهى تلك الابتسامة المشرقة التى تقتل اليأس وتهلك الأحزان ؟ أليست هي على كل حال إنسانة قبل أن تكون سوسن ربيبة المجد والشرف ؟ أليست تخضع لسنن الحياة المستبدة الغامضة التى لا تميز بين كبير وصغير ؟

ويغريه بالأمل أنه الصبى الوحيد الغريب الذى تراه مرات فى الأسبوع وأنه وسيم الطلعة جميل القسمات على رغم فقره وضعته ...

ولكن هذه اللحظات السريعة كانت تمر به مرور النشوة بالسكران وتتركه سريعاً إلى الحقائق المحزنة . وهكذا فأغلب ما يذكر عن تلك الفترة كان خليطاً من الهيام والتسامى والألم واليأس ولحظات قصيرة من السعادة والطمأنينة ، وإلى جانب هذه تبرز له من غياهب الماضى واقعة مسلّية يذكرها بتفاصيلها جميعاً ، وكان فى السنة الأولى أو الثانية من المدارس الثانوية ويبلغ الخامسة عشرة من عمره على وجه التقريب ، وكان ينتظر مقدمها فى مكانه المعهود إذ جاءته وعلى فمها الابتسامة الملائكية وفى يدها كراسة تقبضها وتبسطها فى ارتباك ظاهر فأقبل نحوها منتشياً بالفرح والبهجة وكأنه أراد أن يخلق أسباباً للحديث فسألها :

— ما هذه الكراسة ؟

— كراسة العربى ...

— دائماً العربى ... العربى ...

فتنهدت وقالت :

— أعوذ بالله من هـذه اللغة ... أتعلم أنه لا يكدرنى فى الدنيا شىء إلا همّ حفظها ... فلا الفرنسى ولا الحساب ولا التاريخ بالعلوم التى تعجزنى ، لجميعها كوم والعربى كوم ...

ثم فتحت الكراسة وأنشأت تقلب فى صفحاتها وهى تقول :

— أملى علينا الشيخ سؤالاً صعباً ...

— ما هو ؟ ...

فكان جوابها أن طلبت إليه أن يتبعها إلى أريكة فى بعض منحنيات الحديقة ثم جلسا جنباً إلى جنب لأول مرة وقرأت السؤال قائلة :

— اشرح ما يأتى وأعرب ما تحته خط :

أشوقا ولما يمض لى غير ليـــلة
فكيف إذا خب المطى بنا عشرا

وظن يوسف أن السؤال غاية فى السهولة وأن فى استطاعته أن يجيب عليه فى غمضة عين فقال :

— إنه سؤال بسيط وهذا البيت موجود بنصه في كتاب قواعد اللغة ...

فهزت كتفيها استهانة وقالت :

— لا علم لى بكتاب قواعد لغتك هذا ... أما ما يهمنى فهو أن تملى علىّ على مهل الاعراب والشرح ...

ثم استعدت للكتابة ... فاعتدل فى جلسته وقطب جبينه استحضاراً لفكره الشارد ثم أنشأ يقول :

لما حرف جزم ... ويمض فعل مضارع مجزوم بلما وعلامة جزمه حذف آخره ...

ثم سكت لحظة يختار ديباجة الشرح، ثم استطرد:

أشوقاً ولما يمض لى غير ليلة ... يقول الشاعر: أأشتاق ولم يمض لى غير ليلة على الفراق ...

واضطر إلى قطع الشرح لأنه اكتشف فجأة أنه يجهل معنى خبّ والمطىّ : فنادى ذاكرته ولكنها لم تسعفه، فاضطرب وارتبك واشتد به الخجل وكاد الدم يتفجر من خديه . ولحظت سوسن صمته واضطرابه فسألته وقد قل صبرها :

— والشطر الثانى ؟ ...

فاشتد به الاضطراب والارتباك والخجل، وأشفق من أن يفقد مفخرته الوحيدة فى الدنيا وهى ما زعم من التفوق على الأقران، فآثر الكذب والتحايل على التسليم بالجهل فقال :

— خبّ بمعنى طال ... والمطىّ هو الفراق .. فمعنى الشطر كله فكيف إذا طال الفراق عشر ليال لا ليلة واحدة ؟

وأغلقت سوسن الكراسة فى ارتياح وطمأنينة ونظرت إليه ممتنة شاكرة، فأغضى أمام نظراتها الساحرة خجلاً وخزياً، متألم الضمير من تضليله لها وعبثه بثقتها فيه، وذكر فى رعب مفاجأتها المتوقعة أمام الشيخ حين يشطب بقلمه الأحمر على شرح الشطر الثانى ... فما عسى أن يكون رأيها فيه أو شعورها نحوه ؟ ...

وكاد يغرق فى أفكاره لولا أن سمعها تقول بصوت هادئ عذب :

أأشتاق ولم يمض لى غير ليـلة
فـكيف إذا طال الفراق عشرا

ثم ضحكت وسألته :

— لمن قيل هذا البيت .؟.

وكان قد سرى عنه الهم سماع صوتها وضحكتها وقال: الذى يفهم أن الشاعر يخاطب حبيبته

وكانت هذه أول مرة يجرى بينهما فيها ذكر لإحدى اشتقاقات الحب، فنظر إليها مرتبكا وهاله أن يرى حمرة فى خديّها وارتباكا فى عينيها ... لم ؟ ... لم ؟ ...

وكانت الابتسامة ماتزال متعلقة بشفتيها الجميلتين المفترتين عن در نضيد، وخصلات شعرها مبعثرة على الجبين والخدين كلما هب النسيم حلها من حسن إلى حسن، فنسى الوجود، وما عاد يرى الأشجار والأزهار ولا يحس بهبات النسيم ولا يشعر بهمومه وتأنيب ضميره، وما عاد يذكر من هو ولا من هى، واستقر وجدانه فى هالة من النور تشع من وجهها الجميل، فأنعم فيها نظراً وهياما

ولم تقو على نظراته فأسبلت جفونها وتدفق الدم إلى خديها كأن تلك الكلمة الساحرة التى أفلتت من لسانه عن غير قصد أروتها فأنبتت هاتين الوردتين، فلجّ بها الهيام . واستثاره ما تدل عليه هيئتها من الاستسلام فمال بهامته حتى مس جبينه خصلة من شعرها وأسكره أريج أنفاسها ... وتردد لحظة ... ثم لثم فاها ... وعلى حين فجأة انتفضت الصبية فى جلستها كمن يستيقظ على ضربة فى أم رأسه، وقد اتسعت عيناها، وصرخت فيهما الدهشة والذعر، ثم انتصبت واقفة وفرت هاربة ...

رباه ... ما الذى أفزعها ... ولماذا فرت على تلك الحال ؟ وما عسى أن تفعل بعد ذلك ؟

وامتلأ قلبه رعباً فقام من فوره واندفع جارياً فى اضطراب شديد إلى باب القصر ثم ترك قدميه للريح، لا يلوى على شئ، حتى انتهى إلى حجرته

هل يمكن أن تشكوه سوسن إلى أبيها ؟ كم كان أعمى مجنوناً ! كيف آتته الجرأة ! ياويحه فقد خدع فظن عطفها محبة وعبثها وداً ، وإذا فضحته عند أبيها فماذا يكون مصيره بل ماذا يكون مصير والده نفسه ؟ ولكن رجع أبوه إلى البيت كعادته ومرت أيام دون أن يوجه إليه أي تهمة أو يتعرض للفصل من عمله ، فهدأت نفس يوسف وعاودته العواطف التي غاصت في قلبه لحظات خوفاً وذعراً ، ونازعه الشوق إلى الوجه الجميل وصاحبته ، ورأى أن ما يمكن أن يصيبه من ذهابه لن يعدل ما هو فيه من ألم الشوق مهما ساء وغلا . فحمل نفسه إلى القصر بعد احتجابه تلك الأيام وانتظر ونفسه حيرى ، وجاءته الصبية تسعى ، ولما وقع نظرها عليه بدا على مخايلها الغضب فتقدمت منه خطوات ووقفت متحدية ، فأغضى أمام نظراتها خجلاً وألماً ، وانتظر في يأس الكلمة القاضية ، واشتد عليه الحال فقال بصوت تمزقه نبرات الألم :

كانت غلطة شنيعة ... هل أنت غاضبة ؟ فأجابته بلهجة حادة : « طبعاً ... ماذا كنت تنتظر ؟ »

— اعفي عني ...

— لن أعفو ...

وهنا رفع رأسه بحركة سريعة وقد تبدل وجهه من حال إلى حال ، لأنه خيل إليه أنها فاهت بالعبارة الأخيرة بلهجة رقيقة وهي تغالب ضحكة ، فلما وقع نظره عليها وجدها تبسم إليه بثغر فتان غفور رحيم ...

وهمّ أن يتقدم منها خطوة ففرّت منه هاربة !

كانت تلك الأيام أسعد أيام حياته على الاطلاق ، لا يذكر أنه سعد سعادتها من قبل ولا من بعد رغم تنوّع الظروف واطراد التجارب . وبعد تلك القبلة وذاك الرضا لم تعد تقابله في علانية وسذاجة ، بل اقتصر التبادل الروحي بينهما على النظرات والهمسات أو اللقاء المختلس تحت الخمائل أو خلف جماعات الشجر ، وستر عليهما تعارفهما ترامي أطراف الحديقة وعدم إمكان تسرب الشك إلى قلب من يراهما معاً ، فعاشا زمناً سعيداً في غفلة من الناس والدهر حتى وقع ما قضى عليه بالخروج من جنّته مقهوراً مغلوباً على أمره : كانا جالسين على الأريكة التي قبّلها عليها لأول مرة وقد انساق الحديث إلى المستقبل ، قال يوسف :

— هل يمكن أن تنسيني فيما يقبل من الأيام ؟

فنظرت إليه نظرة إنكار وقالت :

— أنا ... مستحيل ...

— ولكني أخشى أن يبدّد أهلك أحلامنا ... فتنهار آمالي وأفقد سعادتي

فردت عليه وقد كشّرت عن أنفة وكبرياء :

— أبداً ... لن أسمح بهذا ما حييت ... فصمت يوسف لحظة يمتع نفسه بمحاسنها الفاتن ولكن لم يطل به الصمت السعيد لأنه تذكر العقبات الأوابد التي تسد عليه الطريق ، فتنهد وقال وكأنما يحدث نفسه :

— ترى هل أبلغ أمنيتي يوماً فأتزوج منك ؟

وكانت تلك المرة الأولى التي ينطق فيها بتلك الكلمة الخطيرة ، ولذا أنكرتها أذنه وخيل إليه أن قائلها غريب عنه ؛ أما سوسن فقد ارتجفت شفتاها عن اضطراب وتدفق الدم إلى وجهها فصار كالجمان ... ولم يكن يطمع أن تجيبه بأكثر من هذا ... وبعد هنيهة ذهبت في التفكير والأحلام فسألته :

« أي مستقبل تبتني ... ! » . فأجاب : « أنا ما زلت في مستهل الطريق ومبتدأ العمر ... وكل

صعب يسير مع الجهد والعزيمة الصادقة ، فعليك الاختيار وعلى الاجتهاد ... » ففكرت لحظة تختار لزوج المستقبل ماتحب من المهن والأعمال ثم قالت : « ألا تستطيع أن تكون من الأعيان ؟ إنى أسمعهم دائماً يقولون عن بابا إنه من الأعيان فلم لا تكون مثله ... ؟

— من الأعيان ... ولكنها ليست وظيفة ولا مهنة ... الوظائف التى أعنى مثل المهندس والمدرس والضابط والطبيب ...

وعادت مرة أخرى إلى التفكير والمفاضلة ، وكانت عيناه لا تفارقان وجهها ، فرآه تضييق عيناه وتنفرج شفتاه من الذهاب مع التفكير ، ففتنه منظره وأنساه نفسه كما فعل به فى المرآة الأولى ، فاقترب منها وهوى برأسه يريد أن ينال منها قبلة... ولكنه أحس بغتة ... نعم بغتة بشىء يصيب رأسه وسمع صوتاً يصرخ به :

— أتجرؤ يا كلب .. والتفت مذعوراً فرأى أخا الآنسة الأصغر ينهال عليه لكما وضرباً . وأراد دفع السوء عن نفسه فأمسك بتلابيبه ، فتضاعف غضب الأخ وضاعف له الضرب ... ووقفت على بعد قريب سوسن تشاهد ما يقع أمامها بعينين محملقتين ووجه شاحب كوجوه المرضى . ولا يدرى كيف نمى الخبر إلى أبيه فجاء يجرى مضطرباً وأمسك بيوسف بعيداً عن الصبي الآخر وسأله بصوت ملؤه الاحترام « لماذا تجدُ عليه يا سيدى ؟ ماذا فعل ..؟ » فأجابه بصوت عال مغيظ : « رأيته يحاول أن يغتصب ... قبلة من سوسن بالقوة ! ! .. » فصرخ الرجل : « يا للفظاعة ... هل حقاً هذا يا سيدتى ؟ » وكانت سوسن ما تزال ملازمة لحالة المباغتة التى استولت عليها ... فلما سمعت سؤال الرجل اضطربت ثانية ... ثم بلعت ريقها وقالت بصوت خافت : « نعم ... » وفرت هاربة من الواقفين ومن عينى يوسف خاصة

بعد هذا شد الرجل على يد ابنه وساقه أمامه..

وقد هم يوسف أن يتكلم فما أحس إلا بيه أبيه تصيب مؤخر رأسه فيقع على وجهه بين الإعياء الشديد والاغماء .. وهكذا كان ختام حديث الحب والمستقبل ... وهكذا كانت نهاية مغامرته فى قصر سليم بك عامر

لقد بدا له تصرفها أول الأمر غدراً وخيانة . ولكنه لم يلبث أن انتحل لها الأعذار ... وما كان الغضب ولا الموجدة ولا الاعتقاد فى غدرها بمستطيعة أن تزحزح الحب عن قلبه قيد أنملة ، فانزوى فى حجرته يعانى الحرمان والألم واليأس المميت شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ، حقاً لقد كان حباً عجيباً رهيباً ... وإنه لن ينسى ما عاش تلك الأعوام التى شهدت أيامها وساعاتها ودقائقها معاناته الألم الشديد واليأس والحب الخائب ، وفى بعض ساعات اليأس والشوق رسم صورتها على حائط حجرته التى شهدت آلامه جميعها وكتب إلى جانبها تلك الأبيات الشعرية وجعل يرددها كل حين عله ينسي ويتعزى

وما كان يستطيع أن يتصور أنه ينسى ...

ولكن للأيام أحكامها وقد تسرب النسيان إلى طيات قلبه نقطة نقطة حتى برئ وشفي وعفا من قلبه الهوى . ثم تقدم به العمر ووظف ثم تزوج وخلف وضاق بالحب ...

وكم سخر من حياته ومن دنياه ... إلا ذكرى واحدة إذا زارته انبسطت أسارير وجهه ولاحت فى عينيه الأحلام ... وبعد فحسبه أن تذكر... لأن التذكر للقلب كالحفر فى باطن الأرض يفجر الماء فياضاً غزيراً ...

نجيب محفوظ

التحرير

للشاعر الفيلسوف طاغور
بقلم السيد فخري شهاب السعيدي

أفاض سكان المدينة فى الحديث عن هذا الاختلاس فى خزينة الملك ، وتهامسوا بما سيلقاه « رئيس الحرس » من عقاب صارم إن لم يهتد إلى ذلك السارق الجرىء !

... وكان بالمدينة رجل غريب يدعى « فجرازن » جاءها متجراً بما معه من الخيل ، فاتهم بهذه السرقة ... واقتيد مصفداً بالأغلال إلى السجن !! وإن المسكين لسائر — فى أغلاله — وسط زحمة من المتفرجين إذ بصرت به « شياما الفاتنة » حين جلست تطل من شرفتها على الطريق ... فاضطربت لما رأت واستدعت إليها الوصيف تسأله عن هذا الشاب الماجد النبيل ، الذى يقتاده الشرط اقتياد اللصوص المجرمين ، من عساه يكون ؟ ! ثم أمرته أن يستدعى « الضابط » — باسمها — ليحضر إليها السجين

* * *

قال الضابط :

— جاءت متأخرة مساعدتك — ياسيدتى ! — وعلىّ أن أسارع بتنفيذ ما أمر الملك به ؛ ليس إلى غير ما ترين من سبيل

ولكنها ظلت صامتة ما تغمغم بلفظة ولا تجيب وأجاب السجين يخاطب هذه التى حسبها تتندر بالحديث عن أمر إفراجه ، قال : أى فضول هذا الذى بلغ بك أن تحضريني أمامك لتتفكهى بالحديث عنى والعبث بى ؟

قالت ، وقد آلمها خطأه الذى وقع فيه :

أحقاً ما تقول ؟ إنى لو استطعت أن أستبدل بأغلالك حلىّ لفعلت !

والتفتت إلى الضابط تترضاه بالمال عساه أن يفرج عن هذا البائس المسكين ... ولكن الضابط انحنى لها وقال :

— ليس فى الامكان هذا ... إنه ضحية لهذه التهمة التى ألصقت به ... غير أن أمر الملك واجب التنفيذ !

قالت : فأنا أسألك أن تؤجل ذلك إلى يومين آخرين ...

فرضي الضابط بهذا ... واستدار خارجاً والسجين معه !

* * *

انتهى « فجرازن » من صلواته وأدعيته وجلس ينتظر الصباح لينفذ أمر الملك فيه ... وإذا باب السجن يفتح بغتة فتظهر « المرأة » تحمل مصباحاً ينير أمامها الطريق ؛ وإذا « الحارس » يتقدم بإشارة منها فيكسر الأغلال عنه

قال « فجرازن » :

— لقد أشبهت ـ أيتها الرحيمة بمجيئك هذا ـ نجمة الصبح تبشر المريض ، وقد أغبطت عليه الحمى ، بمطلع الشمس وانجلاء ظلام الليل البهيم ، فشكراً .

قالت : أأنا حقيقة « رحيمة » ؟ وقهقهت ضاحكة حتى اغرورقت عيناها بالدموع من شدة الضحك ثم تنهدت وقالت :

— بل ليست فى هذا السجن صخرة أقسى من هذا القلب !

ثم أمسكت بيده مبتعدة به عن السجن ...

* * *

أشرقت الشمس على شاطئ « ڤارونا » ولم يك بالمرفأ غير قارب صغير كأنه كان بانتظارها

قالت « شياما » تخاطب صاحبها :

— تعال .. تعال أيها الشاب الغريب واركب .. لا عليك أن تعرف شيئاً ! ويكفيك — الآن — أن تعلم أنى « حررتك » من أغلالك ؛ ثم ها أنا ذي أقذف بنفسى فى القارب معك ...

وانطلق الزورق يجرى سريعاً فى التيار الزاخر قال « فجرازن » :

— حدثينى أيتها الحبيبة ... عن المال الذى بذلته فأنقذت به حريتى ، وافتديت حياتى ؟ !

قالت : صه ! « ليس حديث هذا الآن ... »

وارتفعت الشمس فى السماء وجاء الظهر ... فرجع النساء القرويات وقد ملأن الجرار وأكملن استحمامهن ، فبقى شاطئ المسبح قفراً تغمره أشعة متوهجة كالنار ...

قال « فجرازن » يهمس فى أذن « شياما »

— وقد كشفت الريح الهابة الشديدة قناعها فجلت محاسن وجهها :

— لقد « حررتنى » من أغلال لتوقعينى فى أغلال أشد منها وأحكم ؟ إنى لشديد الحيرة مما أنا فيه !

فأعادت المرأة نقابها على وجهها وقالت :

« وليس حديث هذا الآن » ... أيها الحبيب !

ثم يرخى الليل سدوله ويشمل بظلامه هذا العالم فتهدأ فيه الحركة وتضمحل الأصوات ، ولا يبقى فيه من آثار النور غير هذا الهلال النحيل ...

جلست « شياما » وقد أسندت رأسها إلى كتف صاحبها الشاب ، وأرخت ذوائب شعرها الفاحم الطوال ، فجللت جسدها ... وبدت كأنها منه فى ليل حالك داج ... قالت تحدث فتاها عن « تحريره » من السجن :

— إن مافعلته من أجلك كان شيئاً مروعاً ... وأروع منه التصريح به إليك أيها الفتى المحبوب ...

وكانت « شياما » وهى تحدث الفتى ممتقعة اللون واطئة الصوت من فرط ما استولى عليها من الاضطراب والهلع الشديد ؛ قالت : ولكني سأجمله لك فى بضع كلمات ...

— لقد أنقذك فتى آخر لا تعرفه ... اتهم نفسه لينجيك ، وتقدم بحياته هدية لى فافتداك ... إن خطيئتى التى اقترفت كان حبك داعياً لها ... أيها الفتى العزيز !

وكان الهلال قد غاب وساد المكان ظلام حالك رهيب ، وغمرته لجة عميقة من السكون ...

وسحب الشاب يده من خصر الفتاة ، وقد استولى عليه وجوم وحيرة أذهلاه عن الكلام ، وعما هو فيه ...

وعلى غرة منه ... أهوت المرأة على قدميه تستغفره قائلة :

— إغتفر لى خطيئتى هذه ... ودع العقاب لله فسيجزينى بما قدمت يداى من إثم أيها العزيز ...

قال — وقد سحب رجله من بين يديها فى عنف وثورة جامحة وغضب ، ظهرت آثاره فى صوته المبحوح :

... ونكون حياتى الشريفة هذه قيمة لخطيئة اقترفتها ؟ وإذن فالنفس الواحد على منها محرّم لا يجوّز فيه ؟!

... وطفر الشاب من القارب وأوغل في الغابة يبتعد ... حتى تأدى به السير إلى مكان فيها كثيف الأشجار ملتف الغصون ، استوقفه قليلاً ، فجلس على الأرض تعباً قد أعياه الطواف الشاق الطويل..

ولكن من ذا الذى كان يقتفى أثره جاداً في السير فى هذا الظلام لا تثنيه شدة التعب ، ولا طول الطريق ؟ كأنه فى اتباعه إياه ظله الذى لا يغيب ؟؟

* * *

صرخ « فجرازن » هائجاً متذمراً :

— ألست بتاركتى أنفرد وحيداً ؟

وفى لحظة خاطفة سريعة انثنت عليه فغمرته بوابل من قبلاتها وأحاطت جسمه بأنفاسها الحرار وقالت تجيبه :

— كلا ... لن أتركك أيها الحبيب ... لقد أثمتُ وكان هذا فى سبيلك أنت .. فاصنع ماتراه .. اضربنى إن بدا لك .. أقتلنى إن أردت ! !

... واعترت ظلام الغاب « رعشة » سرت فى جوانبه . . حتى وصلت إلى ما تحت الأرض من جذور .. وارتفعت فى الفضاء شهقة .. وسقط على الأرض جسمه .. ثم عاود الغابة وجومها العميق..

وبرزت الشمس من خدرها ، وأرسلت شعاعها ينير أمام « فجرازن » الطريق ، فخرج من الغابة — على غير هدى — يسير على الشاطىء الرملى مسرعاً لا ينى ، ولا يرتاث فى السير ... حتى بلغ القارب الصغير . وقد مضى النهار وظهرت كتائب الظلام فى الفضاء . . . وينظر فى القارب فإذا حجل [1] موضوع على الفراش هناك ... وإذا هو يجذب « الحجل » إلى صدره فى عنف شديد يخدش من شدته صدره ... ثم يدفن وجهه فى طيات ملاءة من الحرير كانت فى زاوية من زوايا القارب الصغير ... ليستروح عبير جسم عزيز عليه حىّ ... واحتجب القمر وراء الأشجار فعمّ الظلام الفضاء وساد الهدوء ...

ووقف «فجرازن» وأدار وجهه نحو الغابة وصرخ:

— تعالي أيتها الحبيبة ... تعالي إلىّ

وعاد السكون كما كان عميقاً يسود الفضاء فإذا شبح مقبل يسعى من الغابة حتى انتهى إلى شاطىء النهر .

— تعالى أيتها الحبيبة !

— ها أناذي جئت أيها العزيز ... إن يديك العزيزتين قد حاولتا أن تقتلاني ، ولكن عمرى فى الحياة قد امتد

ووقفت « شياما » قبالة الشاب فألقى إليها بنظرة ، وتقدم خطوة إلى الأمام ليأخذها بين يديه ... وهم أن يفعل ذلك ... و ... ولكنه دفعها عنه صارخاً وارتد :

— كيف ؟ كيف جئت إلىّ ؟

وأدار وجهه ... وقال :

— ابتعدى ... اذهبى عني

وبقيت الفتاة جامدة مكانها برهة ثم انحنت أمامه ... ورجعت سائرة تختفى فى الغاب اختفاء الأحلام ...

و «فجرازن» فى القارب يبصرها مكلوم القلب محزون النفس مما يجد من ألم والتياع !

فخرى شهاب السعيدى

(١) حلية من ذهب أو نحوه يزين بها النساء أرجلهن

هزيمة

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب شكري محمد عياد

— عبد الكريم !

فأجاب الرجل مضطرباً :

— نعم ياسيدى

— ماذا جاء بك ؟

فلمس الرجل لبدته السوداء الطويلة مرتبكاً ، وقال متلعثماً :

— لا شيء ياسيدي ... إنما أتنزه قليلاً

— أنت كاذب ! لقد أرسلوك هذه المرة أيضاً . اذهب فقل لهم إني لست بمجنون ! وإذا رأيتك بعد اليوم فسوف أقتلك قتلا

— سيدي ... سيدي ... سيدي حضرة العمدة أمرني

— قلت لك اذهب . إنهم يفرضون عليّ الرقابة كأني حقاً مجنون ! لم يبق إلا أن يسير ورائي كلما خرجت من باب البيت خفير !

فابتعد الرجل وجلاً وعلامته الصفراء تلمع في ظلام الليل المغطش . وتابع صبري السير وشفتاه مازالتا ترتعدان من الغضب . لقد أصبح البقاء هنا لا يحتمل . فهم جميعاً يعاملونه كأنما هو مجنون . أبوه ، أمه ، إخوته ، كلهم ينظرون إليه مشفقين ، متحسرين ، خائفين أحياناً ! لا يكاد يغضب أو يثور حتى تبكي أمه ، ويضرع أبوه إلى الله أن يلطف به ، ويهرب منه إخوته ؛ ويظل البيت باكياً ضارعاً وجلاً حتى يهدأ . والرجال جميعاً غدوا لا يعاملونه إلا بحذر ؛ حتى نساء البلدة يكاد يسمعهن يقلن : « سي صبري ابن العمدة حصل له لطف ! » كلا . إن هذا أكثر مما يطيق . إن هذا وحده كافٍ لأن يذهب بأرسخ العقول . وإنه ليسائل نفسه أحياناً : « أصحيح ما يرى ويسمع ؟! هل هو حقاً مجنون ؟! » كلا . إنه أدرى بنفسه من كل هؤلاء . لاشك أنه ضعيف الأعصاب ، ولكن ليس معنى هذا أنه مجنون ! حسبه أن يقوم بالليل فيغني أو يصلي ، وأن يبكي ويتشنج لأقل سبب ، لسماع غناء أو لزيارة غير منتظرة . وهو أحياناً يكون غريب الأحوال وحشيّ الضحكات ، كئيباً لغير داع ، أو مسروراً بغير علة . ولكن ذلك لم يبلغ بعد حد الجنون ! إنما هو ضعف في الأعصاب لا يحسن الذين هنا أن يعالجوه . لقد كان في القاهرة وهو غريب أحسن حالاً مما هو الآن بين أهله . كان هناك على الأقل صديقه « ابراهيم » ، وأعظم نعم الله على المكروب صديق يفهمه . وكان لا يحس في الجو المحيط به هذه الكآبة وهذا التعبيس . وكان يذهب ويجيء حراً طليقاً ، لايحاسبه أحد على مايقول أو يفعل . أما هنا فهم لا يكادون يتركونه لحظة يخلو فيها إلى نفسه ، ويذكر ما أصابه تلك السنين الطويلة من يأس وخذلان . لقد كانت له آمال وأماني كبار . كان يرجو الحياة السعيدة بالحب والمجد والمال ،

وذلك الشيء الذى طالما بحث عنــه ، ذلك الشيء الذى لا يستطيع أن يسميه ، لأنه لا يستطيع أن يحده ، لأنه لا يستطيع أن يفهمه . ولـكنه يحس برغم ذلك أنه خلق من أجله ، خلق ليبحث عنه ، خلق ليفنى فيه . وهو اليوم يقف فى ربيعه الخامس والعشرين على أطلال حياة محطمة بائسة . سنون كان ملؤها الـكفاح والقوة والأمل ، فما عاد منها بغير اليأس والضعف والخذلان . أىُّ حلم صدق ؟ أىُّ غرض ثـقِف ؟ أىُّ أمل حقـَّق ؟ لا شيء ! لا شيء غير الخيبة فى كل ما أمله ورجاه . خاب فى الحب حين أحب ، وخاب فى المجـد حين طمح ، وخاب فى الحياة كلها حين اضطرب فى الحياة كلها . ولم يفد من كل ما كافح وناضل وأمل غير نفس مظلمة وأعصاب واهية وقلب مرير . ليته ما كافح ولا ناضل ولا أمل ! إذاً لما عرف الضيق ولا اليأس ولا الخيبة : إذن لعاش كما يعيش كل الناس ، ولسعد كما يسعد كل الناس ، ولضحك وعبث كما يضحك ويعبث كل الناس . لقد أسرف فى الأمل ، فأسرف عليه اليأس . وارتد قلبـه جاحداً بعد شكران كافراً بعد إيمان

وأحس كأنما ضايقت الأفكار السود أنفاسه ، فهز رأسه فى عنف وضيق كأنه يطرد عنه أشباح فكره ؛ وأرسل عينيه فى المروج المخضرة حوله ، كأنه يستهويها ويلهيها . كان الليل قد بسط على الـكون جناحيه ، وكانت النجوم تلمع فى سماء الصيف الرائعة ، والنسيم يهب رخياً ندياً ، نسيم أمسية من أماسىّ الصيف . وكانت العصافير تسقسق على الأشجار المنتثرة حواليه ، سقسقتها الواحدة التى لا تنتهي . هـذه الطبيعة قد تبدو جميلة أحياناً ، ولـكنها لا تستطيع أن تهبه بعض ما ينزع إليـه فؤاده . هى لا تكاد تغير نغمتها الواحدة أو تعزف على غير وترها الفريد . هي الأخرى لا تستطيع أن تملأ قلبه ، أو تشعره بمعنى الحياة . لا شيء فى الدنيا يستطيع أن يشعره بمعنى الحياة . وأراد ثانية أن يذود الأفـكار عن رأسه . ولـكنه كان يحس كأنما هو مدفوع إليها دفعاً ؛ وكان النسيم الرخى يثير فى ذهنه ذكريات بعيدة . ورأى الجميزة التى شهدت غرامه الأول منذ تسع سـنين . لقد كان إذ ذاك على بدء الطريق ، ورأى « منى » وهى يومئذ بارعة الحسن ساحرة الطرف رائعة الملامح ، وما كانت إلا قروية تملأ الجرة وتحمل الغداء إلى الحقل . ولـكن عينيها الصافيتين الصادقتين كانتا تحملان معنى عميقاً بليغاً بعيداً . وكان وجهها الطلق السمح الصغير يبعث فى القلب لذة روحية لا تقوّم ، وينفى عن النفس الرجس والإثم والشك . فـكانا يتقابلان عند هذه الجميزة كل يوم فيتحدثان فى أى شيء إلا الحب . ثم تركها خشية أن يتسامع بهما الناس ، ولـكن قلبه ظل ممتلئاً بها ، آسياً عليها ، حافلاً بذكراها . وإنه ليذكر آخر لقاء لهما . لقد بكت يومها حتى بل الدمع ثيابها ، وبكى هو أيضاً ، بكى كثيراً . فقد مزق الفراق قلبيهما الصغيرين . ويومها فقط جرؤ على أن يقبلها ... فى وله ويأس وفى سيل من الدموع ...

وتزوجت « منى » بعد ذلك وأنجبت ولم يعد يراها إلا قليلاً . ولـكن ذكرى غرامه الأول بقيت محفورة فى قلبه طوال تلك السنين : ساذجة صادقة خالصة صافية كقلب مُنى . ولقد أحب بعد منى وتفلسف فى حبه ، ولـكنه سوف يذكر أبداً

تلك القبلات الوالهة الخجلى ، وذلك الوجه الملائكي الجميل ، كمصباح في ضباب كثيف لا يستطيع أن يبدد من ظلمته شيئاً . وساءل نفسه هل عرف الحب حقاً بعد منى ؟ إنه يذكر الكثيرات اللائى أحب وأزجى إليهن قلبه الحائر الشاعر المتلمس . كلهن عبثن به حيناً وتركنه ، ولم يعرف قلباً أصدق حباً ولا أخلص وداً من قلب مناه الصغيرة ... حتى عائدة التي كان يخيل إليه أنها غير من رأى وعرف ، أنها النور الذى أضاء قلبه السادر ، أنها الملاك المبعوث رحمة للبشر ؛ كان يخيل إليه أنها تستطيع أن تبعثه مرة أخرى ، أن تنفخ في روحه الأمل ، أن تملأ قلبه بالحياة وبالحب ، فطاولها وطاولته ، حتى ملها ويئس منها ، وملته ويئست منه ، وانصرفت عنه إلى فتى أملس الجلد مذهب الحاشية مخنث الشمائل . ولم يجرب بعدها أن يحب ، ولم يمل به قلبه إلى حب ، فقد يئس من كل شيء وتبدلت نظرته إلى الحياة ، ولم يفد من حبه غير الضيق والتشاؤم واضطراب الأعصاب . وقيل له إن فى العمل سلوة المهموم والمحزون والشاكى ، فانصرف إليه بكل ما فى قلبه اليائس من قوة حتى نال متفوقاً إجازة الآداب ووقف حائراً يفكر ماذا يفعل . أبوه يريد له شرف الوظيفة والعمل الحكومى ، وهو لا يجد من نفسه القدرة على احتمال ما تمليه الوظيفة من مهانة وضعة . وكاد الأمر يؤدى إلى نزاع بينه وبين أبيه ، لولا أن خضع صبرى ، وترك أباه يدأب ويسعى ، يطرق باب كل مظنة للجاه أو للنفوذ أو للمنصب ، حتى استطاع أن يكسب له وظيفة بثمانية جنيهات ونصف ، وعاد يحسب نفسه فائزاً مجدوداً . وتسلم صبرى مهام وظيفته غير متوقع نجاحاً أو بقاء فيها ، فقد قال له رئيسه وهو يشرح له سير العمل : « إن شبان هذه الأيام لا تعجبهم أساليبنا فى العمل ، وكأنهم يظنون أنهم ما داموا قد تعلموا فى المدارس العالية ، فمن حقهم أن ينتقدوا رؤساءهم الذين عرفوا سير الدولاب الحكومى قبل أن يعرفوا هم نور الحياة » . وكان ورود صبرى إلى الديوان محل همس ولغط بين الزملاء فكانوا ينظرون فيما يكتب باهتمام ويبتسمون حين يرون تخبط هذا الشاب المثقف خريج الجامعة ! وأراد رئيسه أن يملى عليه إرادته فصادف منه عوداً لا يلين ؛ واتصل النزاع بينهما ، فراح زملاؤه يبدون أمامه إعجابهم بشجاعته ، ويتعجبون أمام الرئيس من جرأته ووقاحته . ولم يكن من دأب صبرى أن ينافق أو يكذب ، ولا كان فى مقدوره احتمال ذلك ، فحنق على كل شئ حتى على أبيه الذى ألقى به فى ذلك المحيط القذر . ولج به الضيق حتى هان عليه تقديم استقالته وإن أغضب بذلك أهله وأباه

وعاد إلى القرية فرأى وجوهاً ملتوية وأنوفاً زافرة وألسنة لا تكف عن ذكر خيبته وضيعته . فلم يطل به المقام وارتد إلى القاهرة يبتغي الرزق من طريق الصحافة . وكان رأيه أن الصحافة مرشدة الجمهور ومثقفته بالصدق والاستقلال والاخلاص ، فرآها إما لسان حزب أو أداة حكومة أو بوق مهرج . ورأى وسيلة النجاح فيها كوسيلة النجاح فى الحياة بأسرها : خداع ونفاق وكذب . وإنه ليذكر كلمة قالها له زميل من كبار محررى الصحف : « ليس من الضرورى مطلقاً أن أثق بصحة الشيء لأحبذه ، ولا أن أومن بقدرة هذا الرجل أو ذاك لأمدحه وأشيد بصفاته ؛ إنما العبرة بما أفيده أنا

وتفيده الجريدة من ذلك كله. ولقد أكون اليوم من أنصار هذا الحزب، إذا أنا من أنصار ذلك الحزب الآخر. وليس فى هذا من بأس إذا أنا ربحت وإذا أنا استطعت — من أى طريق — أن أصحح موقفى فى عيون الناس..» ولم يستطع صبري أن يروض نفسه على هذا الاعتقاد الجديد ففكر فى الاشتغال بالأدب. وكان له غرام به واطلاع فيه، فألف مجموعة أقاصيص أعلن عنها فى الصحف قليلاً، وتحدث عنها النقاد قليلاً، ثم مضت لم يعجب بها أحد، ولم يسخط عليها أحد، ولم تثر ذماً ولا استحساناً ولا مدحاً ولا قدحاً. وثوت فى رفوف المكاتب حتى نسج عليها العنكبوت من خيوطه أكفانا

وألقى السلاح قانطاً، وعاد يفتش عن الوظيفة مرة أخرى

وظل منذ ذلك الحين يتردد بين القرية والقاهرة يطلب العمل هنا ويطلب الراحة هناك، فلا يوفق إلى أيهما. واكتأب وامتلأ قلبه أسى وحزناً أن أن رأى الحياة خيبت كل ما أمله فيها، ووهت أعصابه فنصح له أصدقاؤه أن يتسلى. وسألهم ما معنى السلوان، فابتسموا وأرشدوه إلى دار امرأة من أولئك اللائى يتحملن خطايا البشر. وانزعج صبرى فما كان قد طرق هذا السبيل من قبل. اللهم إلا فى ظروف كآبة كانت تسلبه إرادته ثم تعقبه ندماً؛ ولكن الصدمات المتوالية كانت قد ذللت قياده، فبات من اليأس مستسلماً لكل علاج. وأقبل على هذه الحياة الجديدة يريد أن ينسى نفسه فى لذائذها، فكان يظل كالمخمور حيناً ثم يفيق فكأنما قذف به من حالق، ويحاول محاولة المستميت أن يطفو إلى السطح فتهى قواه ويغوص إلى الأعماق. وكان أشد ما يشقيه سرور مختلق وسعادة كاذبة وهوى رخيص

وتواردت على خاطره صور النساء اللائى عرف، بوجوههن الشاحبة وعيونهن المتعبة ودلالهن المقيت. ولقد كانت تجمح به نفسه فيثور على كل شىء ثم لا يلبث أن يعود إليهن يحاول أن ينسى، حتى مل هذه الحياة المضطربة فعاد إلى القرية منذ أسابيع، يتلمس فيها ذكريات الصبا، ويشتم منها روائح الطفولة، ويلتمس فيها أثراً من «منى». وبالأمس رآها سائرة تحمل الغداء لزوجها، وما استطاع أن يتعرفها إلا بصعوبة، فقد ترهلت واصفر لونها وغاض البشر من محياها، وذوت فيها تلك النرجسة التى عرفها منذ سنين، فعادت امرأة ككل نساء الريف. وكان يجرى فى أعقابها صبى قذر الملابس زرى الهيئة لا شك أنه ابنها. وحين رأته ظل وجهها جامداً كأنها لا تذكر من قديم أمرهما شيئاً، تخيل إليه أن ليس لها بعناه رابطة ولا صلة. وأين هذه من تلك؟ إنه لو سمعها نوديت بهذا الاسم لأنكرها، فليست «منى» لديه إلا ذلك الكائن السماوى البعيد، بقى ساكناً هذا الجسد حيناً ثم مله واجتواه، ولم يبق له منه غير ذكرى تعاوده الحين بعد الحين...

وفيم بقاؤه هنا بعد؟ أفليس من الخير له أن يذهب إلى صديقه إبراهيم يطلب الراحة فى البوح إليه بكل مايضنيه ويشقيه؟ سيسافر فى الغد، فهذا خير له؛ وسيقابله صديقه بالبشر والترحاب كما ألف منه دائماً، بوجهه الطلق السمح وقلبه الصادق الخالص، ونفسه الراضية المطمئنة. وسوف يلقى إليه بكل أحزانه فيشاطره حملها بغير ضجر ولا ضيق؛ ثم لعله يوفق بعد ذلك إلى عمل. أما البقاء هنا فليس يجديه شيئاً

وبدأت سحب اليأس تنجاب عن نفسه.

وعاوده الأمل وإحساس الراحة وهو آيب إلى المنزل . وكان البدر قد طلع وكلل بنوره هام الأشجار ، وانتظمت أشعة الشمس الأرض كلها ، فكست بالجمال كل ما عليها . حتى الأكواخ الصغيرة إلى جانبها حقول الذرة كانت تبدو « كعوامات » من فضة . وأحس صبرى كأن كل شيء حوله يرقص ويغنى . وامتلأ قلبه بالأمل على حين غرة كما امتلأ قبل باليأس . وبات تلك الليلة هادىء الأعصاب مطمئن النفس فصفا البيت معه واطمأن . وفى الصباح استأذن أباه فى السفر فأعطاه جنيهين ، وقال له :

« ليس معي الآن غيرهذين . فإذا احتجت إلى شيء بعدها فارسل إلى . وفقك الله يابنى وسدد خطاك ! »

وهبط صبرى إلى محطة القاهرة فى نحو الساعة العاشرة وقد بدأ يحس قلقاً مبهماً وتردداً ، أين يذهب ؟ أإلى شبرا حيث صديقه إبراهيم ، وحيث الأستاذ حسين حلمى الذى يعتمد عليه فى الحصول على وظيفة ؟ أم ... ... ؟ وظل برهة حائراً . ثم نكس رأسه فى حزن ويأس ، واتجه صوب محطة (الأتوبيس) رقم ١٤ فركب إلى ميدان الاسماعيلية ، ومنه ركب (الأتوبيس) رقم ٦ إلى الجيزة . وسار قليلاً فى شارع سعد زغلول ، ثم عاج فى عدة أزقة ملتوية ، ووقف أمام بيت صغير لا يدل ظاهره على نعمة . وتردد قليلا ، ثم أقبل على الباب يطرقه . لن يذهب إلى شبرا بل سوف يبقى هنا ما واتاه الوقت والمال . وارتفع من الداخل صوت مألوف يسأله :

— « مين » ...

— إفتحى يا عزيزة ... أنا صبرى ...

شكرى محمد عياد

الفصول والغايات

فى تمجيد الله والمواعظ

لأبى العلاء المعري

قصد أبو العلاء بهذا الكتاب الافادة والتعليم ، فتناول فيه عدة علوم ومعارف من شتى الفنون ، وتخير لذلك أجمل مظهر وهو تمجيد الله وعظة الناس ؛ فحسب من لم ير الكتاب أنه انما ألفه ليجاري به القرآن الكريم أو يعارضه . ورتبه على فصول بعدد حروف الهجاء ؛ أما الغايات فهى خاتمة كل فقرة منه ، وهى عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر . وقد ظل هذا الكتاب مفقوداً هذا الدهر الطويل حتى انتهى إلى المرحوم تيمور باشا ، ووفق الله لضبطه بالشكل الكامل وشرح غريبه والتعليق عليه الأستاذ :

محمود حسن زناتى

أمين الخزانة الزكية (سابقاً)

وطبعه على ورق جيد ، وتبلغ صفحاته ٤٩٤ ، ووضع به لوحتين بالفوتوغراف من النسخة الأصلية التى طبع منها وهى المحفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية . وهو يطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ، ويباع فى جميع المكاتب الكبيرة

وثمنه ثلاثون قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد

الجوسق الجبلى

للقصصى الفرنسى جى دى موباسان
بقلم السيد كمال الحريري

لم يكن جوسق جاورانباش ليمتاز من بقية الجواسق « الألبية » فى نسق أو طراز ، فثله كثير على أقدام الجليد وفى حدود الجبل الصخرية ، التى تؤدى إلى ذرى الألب الثلجية ، إنما كان يفرده عن أنداده أنه فى الطريق المنتهية إلى « جه ى » ، وأنه الملاذ الذى يفىء إليه السائحون فى غدوهم ورواحهم

كان يظل نصف السنة مأهول الربع بسكانه ، مأنوس الساحة بأهله ، حتى إذا ابتنى الثلج قبابه فى الوادى ، وأقام الجليد سدوده على مسالك « لوه شى » ظعن عنه « الأب هوسار » مع امرأته وأولاده ، تاركاً على حراسته دليلين أمينين : هما « كاسبار هارى » الكهل ، و « أورليك » الشاب ، ثم « سام » كلب ضخم من كلاب الجبل . فى هذا السجن الثلجى الموحش كان يقيم الرجلان حتى إقبال الربيع ، وليس لديهم من متع الحواس ومرائى النظر غير هضب من الثلج لا تحدُّ ، وكثب من الجليد لا تنتهى ، وغير القمم الشمّ اللامعة ، والذرى البيض الساطعة ، تمنطق هضبة « بالمورن » بسور من زمهرير وصقيع . لقد كانوا طيلة شهور الشتاء فى حصار هائل من جيوش الثلج اللجبة : تحدق بهم من كل مكان ، وتأخذ عليهم كل قطر ، ثم لا تكتفى حتى تزحف على الجوسق بقضها وقضيضها ، فتغمر الباب والنوافذ ، وتحجب السطح والجدُر ، وتترك الرجلين فى قبر بارد موحش ، كفّنته هذه الثلوج الرحبة الآفاق .

فى هذه السنة ، وقد أقبلت طلائع الشتاء ، وخلت الطرق من العابرين والسائحين ، تحتم على أسرة « هوسار » مبارحة الجوسق كعادتهم كل شتاء ، فكنت ترى ثلاثة بغال تترك الفندق الجبلى ، موقرة الظهر بالملابس والأمتعة ، محملة بالثياب والأحزمة ، يستاقها أبناء الموسيو هوسار وتتبعهم الأم جان هوسار وابنتها لوز ، وقد امطتا بغلاً رابعاً ، على حين سار الأب « هوسار » على أثرهم مصحوباً بدليليه الأمينين ، وقد كان عليهما حراسة هذه القافلة ورعايتها حتى حدود القمة التى تبتدىء منها طريق « لوه شى »

أحدقوا أولاً بالبحيرة الصغيرة المتجمدة ، فطالعت أبصارهم أمواهها البراقة وجليدها المتألق ، وهو يلتمع فى أعماق سهل ضيق يمتد وسيماً أمام الجوسق . ثم سايروا الوادى المتلألىء وقد التمع فى جنباته سناء الثلج ، وشع في حواشيه بريق الجليد ، وتحلقت حوله قمم بواذخ وذرى شوامخ غرقت كلها فى بحر لجى أبيض من جليد وصقيع

وكانت أشعة الشمس وهى تسترسل على بسط الثلج الوسيعة ، وحزم النور وهى تنسكب على صحراء الجليد البديعة ، تتعاكس وتتراقص وتموج بعضها فى بعض ، حتى لتكاد تخطف البصر وتعشى النظر

لم تكن نأمة تتحرك وسط محيط القمم الثلجية ، ولا ركز يحس خلال هذه الصحراء الجليدية ، إنما هو السكون العميق والعزلة الساكنة تضربان بجرانهما على كل شئ

وتستمر القافلة في تسيارها ، فإذا «هورليك» الدليل السويسري ذو السيقان الطويلة المنتصبة يخلف وراءه زميله الكهل « كاسبار » والأب هوسار ليلحق بالبغال الأمامية التى كانت تقل الأم جان وبنتها لويز

وتنظر الفتاة إليه يدلف نحوها ، فتكاد تهم باستدعائه بمين فيها التوسل والحزن . كانت كاعباً قروية شقراء . فى خدودها النضر لون الحليب ، وفى غدائرها الصفر تموجات باهتة لا لون لها ، صبغتها بها إقامتها الطويلة وسط الجلامد والثلوج ، ووصل الفتى إليها ، فوضع يده على كفل دابتها وراح يطابق خطاه الشديدة على خطاها الوئيدة . وتأخذ الأم جان فى الحديث إليه عن شئون الجوسق وتدبير الفندق الجبلى الذى وكل إليه ورفيقه أمر حراسته ورعايته . كانت هذه هى المرة الأولى التى يعتزل بها العالم فى أعالى هذا الجبل الثلجي ، على حين أن زميله الكهل كان قد استتم فى هذه السنة خمسة عشر شتاء قضاها سمير الثلوج أليف الجليد فى هذا الجوسق القصى النائى الذى يدعونه چاورانباش . لذلك كان الفتى السويسرى أورليك يصغى لتعاليم الأم وأوامرها دون أن يفقه لها معنى . وبينما كان يجيب الأم من حين لآخر قائلاً :

— أجل أيتها السيدة ، كما تشائين أيتها الأم « هوسار » ، كانت نظراته عالقة بوجه الفتاة لا تريم

وبلغوا بحيرة دوب فبدت لهم فى غور الوادى السحيق الضيق بحيرة مستطيلة الصفحة منجمدة السطح مشعشعة الضوء

وبينما كانوا يقتربون من حنية «جه مى» حيث ينحدر الطريق إلى لوه شى ، انكشف لهم الأفق الرحب عن واد سحرى رائع ، لا يتمثل الخيال ولا يتراءى فى حلم : هو وادى الرون ، توشى جنباته أطرزة الشفق ، وتموه حواشيه ألوان قوس قزح . وعلى البعد من هذا الوادى الحبيب ، حيث يسافر النظر فى مسافة لا تنتهى ، كانت تقوم طائفة من قنن جبال الجية ، مختلفة التكوين متباينة الشكل : فهذه ثمة ميشابل قد طعن قرناها فى أديم السماء ، وتلك كتل ويسيهوارن الهائلة تملأ الرحب ، وهاتيك أهرام « سيرفين » تسد الفضاء ؛ وهناك تحت هذه المشارف العالية والقلاع المرتفعة ، تراءت لهم قرية لوه شى ، وهى تقبع فى هاوية هائلة بعيدة كانت تظهر فيها أبنيتها ومساكنها كأنها حبات من الرمل الأبيض نثرت فى مغارة واسعة سوداء

وهنا تقف البغال على جانب الطريق المتعرجة المتموجة التى تتقاطع وتتحوى ، وتتمعج وتتلوى ، حتى ينتهى بها المطاف إلى هذه القرية المخبوءة المستترة ؛ وتقفز المرأتان فى خفة قرويات الجبل على بساط الثلج ثم يتبعهما الزوج « هوسار » وهو يقول للدليلين :

— إلى اللقاء أيها الصاحبان فى السنة المقبلة ، إنى لأتمنى لكما إقامة هنيئة هذا العام ، ويتعانق المشيعون والظاعنون كل بدوره ، حتى إذا جاءت نوبة أورليك الدليل الشاب غمغم في أذن الآنسة لويز وهو يعانقها :

— لا تنسى أن هناك فى الأعلى رجلين وحيدين . فتجيب الآنسة فى همس : كلا ، كلا . وحين أزف الترحل أشار الأب بيديه تسليمة الوداع ، ثم هبط

وأسرته المنحدر ، وما هى إلا دقائق حتى ابتلعهم الطريق بين طواياه

وينثنى الدليلان إلى الجوسق الموحش جنباً إلى جنب ، بخطوات ثقيلة وصمت طويل . لقد انتهى كل شىء ، وسيظلان خمسة أشهر منعزلين فى هذه الجبال الثلجية المتنائية الأرجاء ، وراح الكهل يقص حكاية حياته الجبلية على زميله الشاب . لقد كان قاطناً هذا الجوسق بصحبة رفيق قديم قعدت به الشيخوخة عن معاودة هذه الحياة ، لأن حادثاً من حوادث القدر قد ينكبه فى جسمه الموهون بين هذه الجبال الثلجية . لم يتطرق السأم إلى نفسيهما ولا أفسد النزاع ما بينهما من الود فى ذلك العام . وفيم النزاع والشجار ، وكل يضطلع بأ كلافه ويقوم بواجبه ؟ ! على أنه بالرغم مما كان يحدق بهما من نُطُق السآمة والوحشة ، فقد خلقا لنفسيهما ملاهى للفراغ ومسليات للحواس . كان أورليك يصغى لقول زميله والطرف خفيض والنفس والهة والفكر شارد ، يفكر في أولئك الراحلين الذين رحلوا منذ قليل

ويقترب الرجلان من الجوسق ، فاذا نكتة سوداء لا تكاد تبصر ، تسجد فى خشوع تحت أقدام الثلج الجبارة ، وتتمرغ فى ضراعة على ساحل محيط الجليد المثلج الوسيع

ويلجان باب الجوسق فيتلقاهما «سام» وهو كلب ضخم جبلى ، ثم يتمسح بهما ويقرع الجو بنباح صاخب ، ثم يتواثب عليهما فى نشاط ومرح ، ويقول الكهل كاسبار وقد استقر به المكان :

— وطن نفسك يا صديقى على أعمال المنزل ، فليس لدينا نساء لادارته . نحن الآن فى حاجة إلى الغداء ، فهيا قشر البطاطس . ثم جلس الاثنان على مقعد خشبى وأنشآ يطبخان الحساء

وفى صبيحة اليوم التالى كانت الساعات تمر ثقيلة مسئمة أمام أورليك ، وبينما الكهل كاسبار يدخن فى سرور أمام الموقد ، كان الشاب أورليك يطل من خلال النافذة على جبال الثلج وهى تلتمع وتتوهج ، وكثبان الجليد وهى تضىء وتتموج

ثم خرج أورليك من الجوسق ، فأعاد رحلة البارحة ، وجعل يتعرف على الأرض آثار حوافر البغال التى راحت بلويز الشقراء . حتى إذا بلغ منشعب الجبل ، وشارف الطنف الذى يطل على قرية لوه شى انطرح على شفير الهاوية وراح يرقب فى نشوة ولذة بيوتها المبعثرة . لم تكن جيوش الثلج قد دهمت تلك البئر العميقة بعد لأن غابات الصنوبر الشجراء ، وأدواح السرو الخضراء ، كانت تقوم كالجند المدافع عن هـذا المضيق الذى لاذت به القرية ؛ وكان الثلج لا يسعه إزاء هذا السور من الشجر إلا أن يتساقط صاغراً على أقدام الأدواح ، دون أن يجد ثلمة ينحدر منها لغزو القرية . وإذن فان لويز الجميلة هناك الآن فى إحدى هذه الأمكنة الدكناء . كم يقوم بنفس الفتى أن يهبط إليها ما دام ذلك يمكنته هذه اللحظة ! ولكن وا أسفاه لقد احتجبت الشمس وراء قمة ويلستروبيل الهائلة

وآب الفتى إلى الجوسق فألفى الأب كاسبار ينفث دخان سيجاره ، وحين شاهد الكهل رفيقه عائداً قدم إليه ورقاً للعب ، ثم جلسا إلى طاولة وجهاً لوجه وطفقا يلعبان « البرسيك » حتى إذا سئما اللعب انكفآ إلى المطبخ فطعما ثم رقدا

وتوالت الأيام على هذا الغرار : مضيئة باردة من غير ثلج جديد ، وعقيب كل ظهر كان الأب كاسبار يروّح عن نفسه بصيد النسور الجبلية ، أو قنص نوع من العصافير يقحمها طيشها هذه الجبال ، على

حين كان أورليك يعيد بدأه على عوده أو عوده على بدئه فيقصد إلى ذلك الطنف الذى يشرف على القرية ليحلم هناك ساعة أو ساعتين ثم يعود إلى الجوسق فيلعب الورق أو « الدمينو » مع زميله كاسبار ، ويكسب أو يخسر هنات قليلة كانا يجعلان عليها مدار اللعب لبعث نشاطه وإذكاء حدته

فى ذات صباح وقد استيقظ الكهل قبل زميله الشاب ، دعاه إلى النافذة ثم أشار إلى غمامة شهباء تزحف إليهما فى سرعة وهول ، وتأخذ على الجو منافذ الأقطار ، وما هى إلا أن أقبلت خرساء عمياء حتى انحطت بكلكلها على الجوسق المسكين ، وإذا فرش الثلج الوثيرة الثقيلة تغطى الباب ثم تزحف على النوافذ ثم تصعد إلى السطح فيغرق الجوسق كله فى موج من الثلج والصقيع

استمرت هذه العاصفة الثلجية أربعة أيام بلياليها ، حتى إذا انفثأت حدتها وهدأ غضبها تحتم على الدليلين — كى يريا نور الحرية — أن يزحزحا عن الباب والنوافذ الثلج المركوم ويحتفرا فى صخور الجليد مسالك للمرور ، ويتم لهما ذلك فى بضعة أيام فيلزمان الجوسق ، ويقبعان أمام المدفأة إلى أن يأذن الله بفرج من عنده

لم يكن أحد منهما ليفتات على زميله فى مزاولة أعمال المنزل أو ممارسة شؤون البيت ، فقد أخذ أورليك الشاب على عاتقه غسل الملابس وتنظيف الأواني وتكسير الحطب ، واستقل الكهل بشؤون الطبخ والطهى ؛ على أن هذه الأعمال المنزلية الهينة كان يتخللها أويقات طويلة للعب الورق ورصف « الدومينو »

أبداً لم ينشب بينهما خصام ، أو يحتدم جدل ، أو تسوء كلمة ؛ وكيف يختصمان وكلاهما هادئ الطبع ساكن القصد حلو الشمائل ؛ ثم هما فوق ذلك راضيا نفسيهما على مكروه هذه الحال ، وأخذاها باحتمال حياة الجبال

وفى بعض الأحايين كان الأب « كاسبار » يتنكب بندقيته وينطلق بها إلى صيد الوعول فيعود منها من حين لآخر بطائفة صريعة . ولا تسل حين ذاك عن الوليمة الفاخرة التى ينعم بها الرجلان فى جوسق جاورانباش على شرف هذا الصيد

فى أحد الأيام انطلق كاسبار إلى الخلاء لهذا الصيد ، وكانت درجة الحرارة ترقم الثانية عشرة تحت الصفر ، والشمس لم تبرح خدرها بعد . وظل أورليك الشاب راقداً حتى الساعة العاشرة ، فلقد كان نؤوماً لا يعنمه من متابعة النوم إلا خجله من رفيقه الذى اعتاد أن يفيق باكراً . وتبلغ الساعة العاشرة فيستيقظ صاحبنا ويتناول إفطاره مع كلبه سام الذى ألف الرقود بجانب الموقد سحابة النهار وسواد الليل ؛ ويفرغ أورليك من الطعام ، فإذا الوحشة ترين على قلبه والوحدة تسود نفسه ، وإذا هو يحس فراغ زميله ويأسى لفراقه هذه الساعات القصار ، ثم ... ثم يمد يده إلى ورق اللعب فلا يجد من يشاركه فيه . وعلى هذا فقد خرج من الجوسق ليروّح عن نفسه ولينجو من وحدته بضع ساعات قبل أن يعود زميله من صيده

كان الثلج قد ملأ جميع الأودية والأهضبة ، وساوى بالبفاع التلاع وبالنجاد الوهاد ، فلم يعد يطالع العين منظر البحيرتين الزجراجتين ، ولا يلفت النظر بروز الصخور السوداء ؛ فالقمم الشم خائضة لجج الثلج ، والقلل الهائلة متكفنة الجسم بكفن الجليد لا يفصل قمة من قمة إلا أقبية هائلة منتظمة من ثلج ، أو حفر واسعة ممرّدة من جليد

ويتوجه أورليك صوب اليمين ، ويسرع خطاه إلى لوورن ضارباً جلامد الصخر بعصاه الحديدية

الصلبة ملتمساً ببصره تلك النكتة السوداء المتحركة التي كانت تلوح على البعد بين تلك البسط الثلجية الواسعة . وإنه لكذلك وإذا الشمس تتضيف للمغيب فتنضر خدود الثلوج البيض بلون الورد ، ثم تدع للرياح اليابسة السافية سبيلاً إلى أحضان الثلج تنشر رغاءه وتبعثر نثاره وتطوح بندوفه أباديد ، ويطلق « أورليك » نداء حاداً طويلاً مهتزاً فإذا رجع الصوت يدوى ويتراجف خلال سكون مهيب هائل ، وإذا رنينه يسافر إلى تلك الأمواج الساكنة الساكتة من الثلج ، واللجج العميقة السحيقة من الجليد ، ثم يضل ويفنى في يهماء رحيبة متناهية من الصقيع . وأرعدت فرائص أورليك لهذا السكون المروع نخيل إليه أن ذلك الصمت الموحش ، وتلك الرياح المتجلدة ، وهاتيك الوحشة الرائنة ، تنفذ إلى كيانه وتزلزل جسمانه ، ثم تجمد الدم في عروقه وتجعل منه كائناً ساكناً لا يتحرك ولا يريم . فلم يجد وسيلة للنجاة من وحشته وخوفه إلا أن يبتدر الجوسق ، فمضى إليه وهو يردد في نفسه : إن « كاسبار » قد عاد من صيده ولاشك ، وكأني به قد جلس إلى مقعده أمام الموقد المضرم وتحت قدميه ما اصطاده من وعول . وبلغ الجوسق فلفت نظره أن خيطاً من الدخان ولو دقيقاً لا يتصاعد من المدخنة ، ففتح الباب في سرعة وقلق ، وإذا الكلب « سام » يدلف إليه ويحييه ولكن أين هنرى كاسبار ؟ ويضرم الشاب النار وينضج الحساء آملاً أن يعود رفيقه كاسبار فيجد الطعام مريئاً والجو دافئاً ، لكنه لم يعد . فكان «أورليك» يخرج من آونة لأخرى كي يتبصر شبحه يدلف أو يسمع صوته يدوى . ولكن الليل أقبل بظلمته المشوبة بلألاء الثلج ولم يعد « كاسبار »

وانقلب المسكين إلى الجوسق يائساً فجلس إلى الموقد يصطلى وقد ذهبت به الأظانين والشكوك كل مذهب

أيمكن أن يكون كاسبار ضل طريقه وتشابهت عليه مسالكه ؟ أيحتمل أنه قابع الآن في أخدود عميق من الجليد كسير الرجل أو مهشم الذراع ؟ يرجفه القر وتولول فوق رأسه نوا كل الريح الصاردة ؟ أيجوز أنه يوالى الصرخات ويتابع الاستغاثات فلا يجد صريخاً ولا منقذاً ؟ وكيف ينقذه إنسان أو يمد له بشر يداً والجبال موحشة عالية ، والوديان رحيبة خالية لا تتحرك فيها نأمة ولا يتنفس ذو رئة

ومع هذا فقد أجمع « أورليك » أمره على البحث عن صاحبه إن أقبل نصف الليل ولم يؤب من صيده . ويأخذ في تهيئة نفسه وتحضير زاده وعتاده فيتناول كلاّبه الفولاذى ويتمنطق بحبل متين دقيق ويمتحن صلابة قضيبه الحديدى ومقاومة فأسه المعد لحفر جلامد الجليد . ثم ينتظر إلى نصف الليل بينما الحطب يتأرث في الموقد والكلب يغط على ضوء النار ، والساعة ترسل في الجو خفقات « بندولها » الراعب الراعش . كان الفتى يرهف السمع إلى عويل العواصف وهي تلطم وجوه القمم البعيدة ، ودمدمة الريح الغاضبة وهي تصفع جدران الجوسق ونوافذه ؛ حتى إذا دقت الساعة الثانية عشرة استوى على قدميه وأيقظ كلبه « سام » ثم فتح الباب وانطلق في الظلمة لجهة ويسانزوبيل . وفي خلال خمس ساعات كان يصعد كثيباً ثم يهبط إلى هوة ثم يعود ويتسلق تلعة أو جبل من ثلج أو جليد . وفي كل ذلك لا يغفل عن تعليق كلابه في صخور الجليد أو احتفار طريقه بين جنادل الثلج ، أو تعليق حبله بكلابه

الفولاذى إما لإصماده بنفسه أو نزوله ، أو لجرّ أو إنزال كلبه المسكين . وأخيراً وفى الساعة الخامسة بلغ القمة التى اعتاد زميله « كاسبار » أن يختلف إليها لصيد الوعول . فجلس هناك ينتظر تبلج النور

كانت السماء حين ذاك مشمشمة الأديم مستضاءة الصفحة قليلا ، ولكن على حين غرة أضاء الآفاق نور وهاج لم يعرف مصدره فغمرت الجبال بسناه اللألاء ، وغرقت الكثبان بنوره الوضاء ، ثم أخذ هذا الضوء يمتد ويفترش حتى تلألأت جبال الثلج وتلاع الجليد بسناه الوهاج الرجاف ، إلى مسافة مائة ميل ، وكان يخيل للعين المنبهرة ، أن ليس شمساً واحدة تلك التى تُطلع كل هذه الأضواء ، وإنما بلورات الثلج ، ومرايا الجليد تبثق كل واحدة منها شموساً لا تمد وأنواراً لا تحد . ثم أخذت قمم الثلج العالية البعيدة تتراءى للنظر واحدة بعد أخرى بحللها الحمر الوردية التى نسجتها عليها خيوط الشمس ، فاستحال الكون كله إلى سنى وسناء وجمال وسحر ، وينسرح أورليك بعد إذ أخذ حظه من الراحة ، فى الأودية والهضاب ، والأخاديد والشعاب ، حتى الظهر يتعيّف الآثار ويتلمس مواقع الأقدام ، وهو يقول لكلبه :

— ألا فتش أيها الكلب الضخم عن آثار « كاسبار » سيدك . فيرود الكلب ويجوس ، ويتخلل الحفائر والمضائق والمغائر والأخاويد ثم ... ثم لا يجد لا هو ولا صاحبه شيئاً

ويقبل المساء ، فإذا صاحبنا هو وكلبه قطعا فى يومهم مسافة خمسين ميلاً ، وإذا هما من الإجهاد والتعب بحيث لا يقويان على مواصلة السير إلى الجوسق البعيد ، فيلجآن إلى حفرة منعزلة فى قاصية الوادى ، ويبيتان فيها ليلتهما وقد أضفى « أورليك » عليه وعلى كلبه لحافاً صغيراً ، ثم التصق بكلبه المتعب كى يدرأ عن جسمه زمهرير البرد الذى بات ينفذ إلى عروقه طيلة الليل . لم يغتمض له جفن فى تلك الحفرة الصاردة المظلمة ، لأن الأشباح المخيفة كانت تراود عينه وخياله ، والريح اللاذعة ترعد أطرافه وأوصاله .

وينهض صاحبنا مع الفجر مُصاب الأطراف من القر ، مجمد العروق من البرد ، خافق القلب مرعد الفرائص ، يظن كل همسة أو رعشة أو هزة نذير موته فى هذه الأصقاع الثلجية التى لا يعيش فيها إنسان

ويبلغ « أورليك » منزله هو وكلبه الأعرج ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، فإذا المكان خال موحش ، فيأكل الشاب طعامه ثم ينام تعباً منهوكاً لا يفكر فى شىء . استغرق فى نوم طويل عميق غلاّب مما قضاه البارحة من عناء ووعثاء ومشقة ، ولكن أتراه يحلم ؟ ! أتراه يسمع هتفة طائف النوم الذى يهتف فى أذن النائم المجهود والحالم المكدود ؟ إنه ليسمع هذا النداء الضاج الصارخ بجميع حواسه ومشاعره : نداء هائل مزعج ما إن ينزلق من أذنيه حتى ينفذ إلى أعماق أعصابه المرتجفة الثائرة ، وإذاً فإن صوتاً يناديه ويدعوه إليه ، ويهيب به من النوم ؟ ذلك حق لا ريب فيه ، وهنا يذعر الشاب ، فينتفض من سريره إلى الباب ويروح يصرخ عالياً :

— أهو أنت يا كاسبار ؟ ولكن أحداً لم يجبه ، وصوتاً أو ركزاً لم يتأدّ إلى سمعه ، إنما هو الليل الطويل المعتكر وشمشمة الثلوج المتماكسة ، وأنين الرياح النادبة ، ثم صفير العواصف الغاضبة على الجبال والوهاد والحفر ، ثم سكون الموت ووحشة الفناء ، ولا شىء بعد ذلك . ويصرخ « أورليك » : كاسبار ، كاسبار ! ثم يصغى ويصيخ ، ولكن كل شىء يظل أخرس لا يجيب

وصامتا صمت الموت ، فتستقل رواعد الذعر عظام الشاب وينكفىء إلى مُنمزِله الموحش ، فيسقط المزاليج ويحكم قفل الباب ، ثم يتهاوى واجفاً راجفاً على كرسى أمام الموقد ، ثم يأخذ فى التفكير : إن « كاسبار » الآن رهين حفرة عميقة من الجليد منذ ليلتين ؛ إنه فى أخدود سحيق ، هو فى نصاعة بياضه أهول منظراً من قطع الليل الفاحمة ، أوعتمة المغائر الموحشة ؛ إنه ليحتضر فى هذه الحفرة منذ يومين ، وسيموت البائس وحيداً جامد الدم . سيموت وهو يفكر فى صاحبه الشاب ، ثم لا تكاد روحه تخرج إلى فاطرها ، حتى تحلق فوق الجوسق وتدعوه إليها بدعاء رهيب غامض لا تعرف سره إلا أرواح الموتى حين تتصل بأرواح الأحياء . إن روحه الآن لتهتف بروحه التائهة ولكن فى غير ضجة ولا صوت؛ إنها لتودوداعه وداعاً أخيراً ، أو قل إنها تبنى تعنيفه تعنيفاً مؤلماً ، أو لا هذا ولا ذاك ، إنها لتصب على رأسه لعناتها صباً ، لأنه لم ينقذ صاحبها من حفرته السحيقة . كان « أورليك » يحس هذه الروح الهائمة الغاضبة فى كل ما يحيط به من مكان : وراء الجدار ، وخلف الباب ، وفى صحن المطبخ ؛ وقد كبر فى وهمه أنها تحلق وتطير فى جو الجوسق كطائر مذعور ليلى يتهافت على نافذة مضيئة ليلجها . ولقد بلغ الذعر بالفتى لهذه الخاطرة أن كان متهيئاً للعواء من خوفه ورعبه ، يريد الهرب والنجاة بنفسه، ولكن أنى له الجرأة على ذلك ؟ ! لن يجسر على الهرب من الجوسق ، لأنه سيلق الشبح المهيب خارجه يتربص به الغوائل حتى يكتشف جسد زميله فيواريه حفرة تدفأ فيها عظامه ويستريح رفاته . وطلع النهار فهدأ روع المسكين قليلاً ، واطمأنت نفسه الراعشة إلى شعاع الشمس ، يؤنسه من وحشة ويؤمنه من خوف . فطعم وأطعم كلبه ، ثم جلس أمام الموقد جلسة البارحة يفكر فى زميله المنطوى فى غيابة الثلج . ويدهمه الليل فيعتاده الذعر ويلم به طيف الأمس ، وإذا هو واجف راجف ، وحيد فريد كأوحش ما تكون الوحدة ، وأهول ما يكون الانفراد . هو وحده فى هذه الصحراء الثلجية الرحبة على بعد ألفى متر فقط من العمران ، والسكان ، والحياة والحركة والضجيج ؛ وهنا يخطر له أن ينجو بنفسه من هذا القبر الثلجى الوسيع ولْتَجرّه قدماه إلى حيث ألقت ... ولكن أنى له هذا وهو لا يجرؤ حتى على فتح الباب ؟ . وعند منتصف الليل ، وحين أعياه ذرع الغرفة ، وأنهكت أعصابه خطرات الطيف ، نام المسكين على مسند المقعد ، لأنه كان يخاف سريره كما يخاف مغارة مسكونة بالأرواح . ولكن يا لهول هذا الصوت ! إنه ليقرع أذنيه مدوياً مجلجلاً صاخباً غاضباً حتى ليلاقى المسكين أرضاً هو ومقعده ، ويفيق الكلب فزعاً لهذه الضجة فيأخذ فى نباح مدوّ ثم يدور بأركان المنزل ، ويجوس نواحى الجوسق كى يعرف مأتى هذه الضجة ومرجع هذا الصوت ، ولكنه حين لم يجد أحداً أقعى بجانب الموقد حذراً قلقاً منتصب الرأس ملتمع العين يزجر ويدمدم . وثاب إلى أورليك هدوؤه قليلاً فراح يلتمس من « البوفيه (١) » زجاجة من العرق طفق يجترعها كأساً كأساً حتى إذا أتى عليها عاودته شجاعته العازبة ، وراجعه حلمه الذاهب ، ثم تلاشت مخاوفه فى جو من الإبهام والغموض

وأقبل الغد فلم يذق أورليك طعاماً وإنما اكتفى بجرعات « الكحول » تلهب عروقه الجامدة بحميا

(١) استعملنا هذه اللفظة لأننا لم نجد مقابلها فى العربية

النشاط ، وتقيم حول دماغه وحواسه سوراً من نسيان ...

وتوالت الأيام على هذا الحال لا يطرق مسمعه هاتف رفيقه الموءود حتى يأخذ فى الاجتراع والعب والعل والنهل ، ثم ... ثم يسقط على الأرض سكران لا يعى ولا يحس ، ولكن ما يكاد يستفيق إلى نفسه حتى يدوى فى أذنيه النداء الهائل المرعب : « أورليك ، أورليك » فينتصب المسكين على قدميه الراجفتين كأن هذا النداء رصاصة تنفذ فى دماغه ، ثم يترنح سكراً ويميد فزعاً فيستدعى كلبه « سام » إلى نجدته ، ويتراكض الحيوان وقد أصبح مجنوناً مسعوراً كسيده ، إلى الباب يخدشه بأظفاره المرهفة ويقرضه بأنيابه الحادة اللامعة ، على حين ينتصب سيده أمام « البوفيه » مهطع العنق مزلزل الرأس مرنح المعطف سكراً يعب جرعات العرق الحارة كما يعب مسابق مجهود كؤوس المرطبات الباردة، ثم هذيان ونسيان وغيبوبة ليس معها فزعه الهموم وطائفه الدوم

ومضت أسابيع ثلاثة ، فنفد ما عنده من خمر ، وما فى « البوفيه » من « كحول » ، وأصبح المسكين وقد اجترع آخر نقطة من العرق أشد تهيباً للنداء المدوى وأرهف شعوراً بالطيف الهاتف : فإن إدمان شهر على الخمرة ما زاد مخاوف المسكين إلا تيقظاً وتركزاً فى عقله الباطن . فهو يغدو الآن ويروح مفزعاً مروعاً لا يفتأ يلصق أذنيه على جدار الجوسق ، أو يرهف سمعه على باب المنزل، والصوت مع ذلك لا ينقطع دويه ولا يفتر هتافه : « أورليك » « أورليك »

فى ذات ليلة قد أخرجه هذا النداء الملح عن طورجبنه ، ابتدر الباب كي يتعرف ذلك الشخص الذى يناديه ، وكي يرغم ذلك الصوت الثرثار على الصمت والخرس . ولكن ريحاً مثلجة ترجف العظم وترعد الفرائص ، أرغمته على إغلاق الباب وإسقاط المزاليج . فأغلقه دون أن ينتبه إلى أن كلبه « سام » ألقى بنفسه خارج الباب . وترجف أورليك رواعد البرد وهزاهز الفزع فيسرع إلى المدفأة يؤرث نارها ويذكي ضرامها ، ولكنه ما يكاد يفعل حتى يقف شعر جسده هولاً وذعراً ، لأن يداً خفية كانت تخدش الباب وأنيناً مروعاً كان يعقب هذا الخدش . ويصعق الخوف « أورليك » فيصرخ : أخرج من هنا ، إليك عنى . فلا يجيبه إلا أنين ضارع وعواء باك

وهنا . هنا فقط يغادر رأسه كل ما بقى فيه من رشد وصواب فيدور كالمجنون على نفسه ويقول :

— إليك عنى ! أخرج من هنا ! ولكن العواء الباكى ، أو البكاء العاوى لا يلتفت لأوامره بل يدور حول الجدران ، ويحدق بأركان الجوسق وينفذ من تحت الباب . وامتلأ قلب الشاب فرقاً ورهقاً فأسرع إلى منضدة « البوفيه » المليئة صحوناً وكؤوساً ، ثم رفعها بين يديه بقوة الجبابرة المجانين ثم وضعها أمام الباب ، فتم له بذلك متراس هائل حصين أخذ يكدس فوقه أدوات المنزل ، وأشياء المطبخ ، ثم فراشه وسريره ووسائده ، ثم كل ما وقعت عليه عيناه من آنية أو آلة أو كرسى حتى لقد تعرم أمام الباب تل ينطح السقف ويسد منافذ الهواء

ولكن نداء الكلب الصارخ أصبح الآن خارج المنزل عويلا مبكياً وأنيناً مشجياً لم يلبث « أورليك » نفسه أن أخذ يجيبه بمثله

وانقضت أيام وليال وهذان العواءان لا ينقطعان عن الترداد والدوى : عواء منتقل سيار من الخارج يخدش الباب ويلطم النوافذ ويهم بتقويض

الجدران ، يقابله عواء من الداخل ، لا يفتأ صاحبه وهو يتبع حركات الأول ينشر أذنيه على الحائط أو يكدس الأشياء على المتراس ، أو يبادل العواء الخارجي : نباحاً بنباح وأنيناً بأنين

ويمسى المساء ، وإذا صاحبنا « أورليك » لا يسمع البكاء المدوى ولا الأنين العاوى ، وإذا سكون طويل عميق طويل يرين على جو الجوسق . هنالك يتهافت المسكين على مقعد خائر العزم موهون القوى مصعوق الرأس ، ثم يسلم نفسه إلى نوم عميق غلاب ... ويستفيق «أورليك» بعد ساعات ، وقد تكون أياماً ، فارغ الرأس من الرشد ، خالى الذهن من الذكرى ، كأنما أفرغ كل ما فى دماغه فى هذه النومة التى غرق فيها ، ويحس بالجوع ينهش معدته فيقبل على الطعام إقبال الهيم

***

وأقلع الشتاء بقضه وقضيضه وثلجه وبرده ، فعادت المسالك ممهدة والمصاعد معبدة ، وأصبح معبر « جه مي » سالك الطريق ذخار الحركة فتتخذ أسرة «هوسار» سبيلها إلى جوسقها الجبلى . وكانت طيلة الطريق فى حديث الدليلين اللذين تأخرا هذه السنة عن النزول لاستقبالها مع أن ذلك دأبها كل عام . وأخيراً لاح لأسرة « هوسار » شبح الجوسق مغموراً بالثلج محاط الجهات بالجليد ، ولكن بابه كان مغلقاً ، وخيوط دقيقة من الدخان كانت ترتفع من مدخنته . ويقترب الأب هوسار من عتبة الجوسق فإذا هيكل عظمى لحيوان نافق يطالع بصره . وتحدق العائلة فى هذا الهيكل العظمى الذى تناوشته قشاعم الجبال ثم تقول الأم « هوسار »

— لكأنى به هيكل كلبنا «سام» ! قالت هذا وراحت تردد :

— أيها الأب كاسبار ، أين أنت يا كاسبار ؟ وهنا أجابتها من داخل المنزل صرخة مدوية لا تخرج إلا من فم ثور هائج . وأعاد الأب هوسار النداء فارتدت الصرخة المرعبة تجلجل فى آذان الأسرة . ويعتزم الأب وأبناؤه اقتحام الباب المسدود ؛ غير أن الباب صمد لهم أولاً ثم خضع وانكسر حين دفعوه بقاعة خشبية ، ولكن ما كاد ينفتح حتى ارتفعت فى الجو صرخة مدوية ، ثم أبصروا ويا هول وأغرب ما أبصروا : أبصروا وسط الغرفة رجلاً مسترسل الشعر حتى الكتفين ، طويل اللحية حتى الصدر ، أغبر أشعث ممزق الثياب زائغ البصر هائل المرأى .

لم تعرف الأسرة أولا هذا الغول البشرى ، ولكن الابن لويس قال :

— إنه أورليك يا أماه . ثم أمنت الأم على قوله :

— نعم يا بنى إنه بعينه رغم شعوره البيضاء .

وسمح أورليك لأسياده بالاقتراب منه ، وأذن لهم بلمس جسده ولكنه لم يجب بكلمة على الأسئلة الملقاة عليه . على أن الطبيب وضع حداً لكل هذه الشكوك حين أعلن للأسرة فى الغد أن «أورليك» مجنون .

ولكن أين رفيقه الكهل كاسبار ؟ أى حادث عصف بعقل المسكين ؟ ثم من قتل الكلب الأمين ؟ ؟

تلك أسئلة لم تجد لها الأسرة أجوبة وا أسفاه !

« حلب » كمال الحريرى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾